محمود تيمور

خطوات على الشلال

ومشاهد أخرى

وصف لموطن « السد العالى »
وما هنالك من آثار ومعالم
إلى وصف مشاهد أخرى

مطبعة الكيلانى الصغير
٢٨ شارع البستان ــ تليفون ٥٠٩٧٢

محمود تيمور

خطوات على الشلال

ومشاهد أخرى

وصف لموطن « السد العالى »
وما هنالك من آثار ومعالم
إلى وصف مشاهد أخرى

مطبعة الكيلانى الصغير

الطبعة الأولى — ١٩٦٥

تصـــدير

فى عيد العلم

الـكلمة التى ألقاها الـكاتب بمناسبة نيله جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، فى الاحتفال بعيد العلم ، فى ديسمبر ١٩٦٣ بحضور السيد الرئيس «جمال عبد الناصر» رئيس الجمهورية العربية المتحدة

سيدى الرئيس :

لقد أهدى عهد الجمهورية إلى الأمة العربية أياماً خالدة ، ومواسم مشهودة ، تزخر بأسمى معانى الوطنية والعزة والمجد ، ولقد اتخذت الأمة من هذه الأيام والمواسم أعياداً بهيجة تحتفل بها وتعتد ، وإن عيد العلم ليتألق بين أيامنا ومواسمنا الجديدة ، كما تتألق الدرة الفريدة التى هى واسطة العِقْد .

فى هــذا العيد الذى يحمل اسم العلم ، وهو أجلّ قيمة يعتز بها الـكون ، تمثيل حق لمـا تملك أمتنا من قوة إيجابية

تساير ركب الحضارة الإنسانية ، وتنافس بها فى مضمار التقدم البشرى ، وفيه تعبير صادق عما يَعْمُرُ جوانحها من عزم وطيد على البناء والتشييد ، ومن طموح إلى غد مشرق يكفل الخير والسعادة للجميع .

وإن الدولة باحتفالها الكبير بهذا اليوم الأغرّ ، وبما تسدى فى سبيله من تقدير رفيع ، ومن تشجيع كريم ، لتعرب عن إدراكها السليم لأنفس ما فى الأمة من ذخائر وكنوز ، وعن إيمانها بأن تلك الكنوز والذخائر إنما هى عُدَّتها وعَتادها لتحقيق ما سمت إليه من أهداف .

والفائزون فى عيد العلم اليوم ، على تعدد ضروب النشاط العقلى والوجدانى والعملى التى أحرزوا فيها قَصَبَ السَّبْق ، إذا غمرهم الاغتباط بما أُوتوا من تقدير وتشجيع ، ومن حفاوة وتكريم ـ فإنهم فوق ذلك يجمع بينهم رباط وثيق من الشعور بأنهم فى كفاحهم المقدس ، ذلك الكفاح فى سبيل المعرفة على اختلاف نواحيها ، إنما يمثلون الاستجابة القَوْمِيَّة لنداء

العهد الجديد ، والانتفاضة القوية للسمو بوطنهم إلى الأوْج المنشود ، وهم يدلّون بذلك على أنهم أكفاء لتلك اليقظة الشاملة التى بعثتها ثورتنا الرشيدة ، ثورةُ الحرية الوطنية ، والكرامة القومية ، والعدالة الاجتماعية .

وليس من ريب فى أن إعزاز الدولة لهم ، وحفاوتها بهم ، وسخاءها فى تكريمهم ، جدير أن يُعَمِّق من تقديرهم للمجتمع الذى أتاح لطاقاتهم الخلاقة أن تنبثق ، جدير أن يزوِّدهم بضوء على الطريق ، ويبثَّ فيهم الحَمِيَّةَ والاستبسال ، ويمدّهم بروح من الثقة تدفع بخطاهم إلى أمام .

ولئن كانت جوائز التقدير والتشجيع لِمَنْ أهّلتهم لها مواهبُ وكفايات وجهود ، مما يدعوهم إلى الفرح والابتهاج ، ويبعثهم على الفخر والاعتزاز — إن مما يضاعف ذلك كله عندهم ، ويقوى معانيَه فى نفوسهم ، أنهم يتلقون تلك الجوائز من يدِ زعيمٍ هو صاحب اليد الطُّولَى فيما أحرزته أمتنا من وثبة بعيدة المدى ، لاءَمَتْ عصر السرعةِ فى قوتها ومضائها ،

وثبة قلّ فى وثبات الأمم ، على تعاقب عصور التاريخ ، ما يدانيها فى عمق الأثر ، وأصالة التطور ، وسلامة الاتجاه ، وجسامة الغايات .

سيدى الرئيس :

إنك لسعيد حقاً بسعيك الكريم إلى هذا الحفل النبيل ، لتشهد عيد العقول الواعية الموجهة ، والأخيلة الخِصْبة المبتكرة ، والأيدى النشيطة العاملة ؛ عيد الرّوح النابض فى كيان أمة تدين لك بما استوفت من أسباب العزة والكرامة ، ووسائل النماء والازدهار . وإنك لسعيد حقاً بأن تُجيز بيدك المبسوطة هؤلاء الذين يمثلون أفواجاً من الطليعة فى صفوف الكفاح العقلى والعملى من أجل البناء والتجديد . فهؤلاء جميعاً بعضُ جائزتك أنتَ على ما أبليتَ فى سبيل الوطن العربى ، وهم بعض الثمرة التى استطعت أن توفر لها النضج والإيناع . فإنك بقوة إيمانك ، ونَفاذ بصيرتك ، وشجاعة نفسك ، عملت على أن تفك الطِّلسم عن فَمِ القُمْقُم، فانطلق

المارد انطلاقته الجبارة ، ليهيء للوطن الحر حياة سَوِيَّة ، على أسس من ديمقراطية حقة ، واشتراكية عادلة . وما أسعد الزعماء والقادة بأن يروا البذرة الصالحة قد أنبتت نباتها ، وآتت أُكُلَهَا ، وأنها واعدة بمزيد مِن أطايب الثمرات .

سيدى الرئيس :

نحن جميعاً فى هذا العهد الجديد رُوّادُ آفاق تخلَّفْنا عنها حيناً من الدهر ، وسبق غيرُنا إليها فى جِدّ ، ونريد الآن أَن نلحق بها سِراعاً ، وأن نبلغ فيها شَأْواً بعيداً . والأديب رائد من روّاد هذه الآفاق ، مجال ريادته هو النفس البشرية ، وليس جانب من جوانب الحياة بأشدّ تعقيداً وتشابكا والتباساً من تلك النفس فيما يصطرع فيها من غرائز وميول . فرسالة الأديب هى سَبْر أغوار النفس ، واستبطان الخفىّ من أسرارها . يجوس خلال مَجاهِلِها ، ويحلِّق فى سماواتها ، ويتسرّب فى أعماقها ، حتى يجلوها على حقيقتها ، مبصّراً إيانا بما يعتمل فيها من دوافع وجواذب . وإنه فى أدائه لرسالته لَيُزِيل الغِشاوة عن أعيننا ،

نحسن المعرفة بجوهر وجودنا ، ونزداد فهماً لمن يعايشنا .
ورأس الحكمة أن يعرف المرء نفسه ، وأن يفهمَ الناسَ
من حوله .

الهدف الأصيل للأديب أن يكشف عن الإنسان بمعناه
الشامل ، في خيره وشره ، في سطوته وضعفه ، الإنسان الذي
حمل أمانة الحياة ، ليمارس بها ملكاته في دنياه . والأديب الحقُّ
بما وُهِبَ من رهافة الحسِّ ، وبما جُبِلَ عليه من فطرة الخير ،
هو الذي يتخذ هذا الهدف ، واعياً أو غير واع ، سبيلا إلى تطوير
الإنسان ، حتى يكون إنسانَ عالَمٍ أفضل ، إنسانا مثالياً في مجتمع
مثاليّ ، تسوده روح التعاون الصادق ، وتتحقق فيه المساواة
الكاملة ، ويرفرف عليه الإخاء والرخاء .

سيدى الرئيس :

لقد أعلنتَها حرباً على الضعف والتخلف والاستخذاء ،
وشَبَبْتَها ثورةً للتجديد والخَلْق والبناء ، ورسمتَها خُطة متكاملة
متساندة ، على بصيرةٍ وهُدًى ، تنتفع بكل جهد ، وتبتعث كلَّ

طاقة ، وتتناول كل مَرْفَق ، لكى تنهض الأمة وَحدة شاملة ، مؤتلفة الأوضاع ، متوافقة الروح ، متناسقة السعى ، كى تحل من ركب الحضارة والعمران محلها المرموق فى هذا الوجود ، وتعمل مع العاملين للحق والعدل والسلام .

وإن أمتنا العربية العزيزة ، أمتَنا التى أشرق بماضيها وجه التاريخ ، وازدانت بمجدها ألوان الحضارات ، لتشعر بشرف الجهاد فى سبيل تلك القِيَمِ الفاضلة والمثل العليا ، وتدين بحق الولاء تحت هذا اللواء ، فى ميادين العلم والأدب والفن على السواء .

محمود تيمور

١

إلى «أسوان»

لما دُعيت إلى حضور « نَدْوة الكِتاب » فى « دار الثقافة » بمدينة « أسوان » وثبتْ إلى رأسى على الفور حكمة لبعض هواة الترحّل ، يقول فيها : « أطيب الرحلات وأجداها هى التى يقوم بها المرء على ظهر دابة ذَلُول » . والحق أن الرحلة إذا توافر لها التمهل والتؤدة أتاحت لصاحبها أن يستجلىَ المشاهد فى هِينَةٍ ورفق ، ويستوعب الحقائق فى رَوِيَّة واستمتاع . بَيْدَ أن هذه الحكمة على وجاهتها عسيرة التنفيذ من نواح عدة ، فى عصرنا الحاضر ، ولا سيما فى سَفْرَتنا هذه ، ونحن نؤدى مهمة لا تحتمل التباطؤ والتسويف .

لا أقل إذن من اتخاذ وسيلة للسفر ، غير الوسائل السريعة الخاطفة ، وإن « قطار الصعيد » لمطية حَرِيَّة أن تبلغنا ما نريد .

إنه رَكُوبة طيبة ، فيها راحة للمسافر بالنهار والليل ، وفيها مجال للتفرج والتعرف والاستجلاء . فإن « عربة النوم » تجمع لك فى مقصورتك كل أسباب الطمأنينة لرحلة رَخِيَّةٍ هانئة .

ما إن قرّ على ذلك عزمى ، حتى نَمَى إلى علمى أن المسافة بين « القاهرة » و « أسوان » تتطلب أربع عشرة ساعة أو تزيد فى « قطار الصعيد » ، على حين أن الطائرة تقطع هذه المسافة كلها فى نحو ساعتين اثنتين .

ولبثتُ أراجع نفسى لحظات ، ثم هتفت : لا شأن لى بالقطار ، فلن أقضى يوما وبعض يوم ، حَبيساً فى « عربة نوم » ! . . . دَعْنِي أيها القطار المِكْسال ، لقد أصبحتَ — والزمنُ زمنُ سرعة واغتنام — تثير الإشفاق والرثاء . أنت يا صاحبى على أبواب المعاش ... وأما أنت يا « عربةَ النوم » فلا أستطيع أن أستبقى نفسى صَرِيعاً بين ذراعيكِ الدافئتين طَوالَ ساعات وساعات . وأخشى ما أخشاه أن أن يتسرَّب منك الخَدَر إلى كيانى ، فإذا أنا أستمرىء التراخى وأركن إلى الخمول . . . إن الساعات التى أمضيتها

فى صحبتك مَجْلبة للملل ، مَبْعَثة على الضِّيق ، فالراحة والرفاهة — وإن كانت مستعذبة — إذا طالت وامتدت عادت مكروهة لا لذة فيها ولا متعة . نحن على موعد مع العمل الجادّ ، والنشاط العارم ، والطموح البعيد ... نحن فى رحلة استطلاع ، نتعرف فيها مجدَ ماض غَـبَر ، وجبروت حاضر تتجلى فيه صلابة العزم ، وصرامة الجهد ، وعبقرية الإنشاء والتعمير ... إليكِ عنى يا غانيةَ الأمسِ الدابر ، ومرحبا بكِ يا غادةَ اليومِ المشرق الجديد ... إليكِ عنى يا « عربة النوم » ، ومرحبا بكِ أيتها الطائرة !

ولمعتْ فى خاطرى مشاهد قديمة ، حين زرتُ تلك البقاع السياحية ، منذ ثلاثين عاما ونَيِّف . لقد قطعتُ الرحلة من قبل فى ذهبية نيلية يجرها زورق بخارىّ ، وكنت يومئذ ضيف صديق كريم ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر يوما . ومرةً قطعتها بالقطار ، فاستغرقتْ ليلة وبعض نهار ، وهأنذا أقطعها الآن على بساط الريح فى نحو ساعتين ، فهل تُـكْتَبُ لى سَفْرَة قادمة إلى موطن الفراعنة متخذاً من « الصاروخ » وسيلة

انتقال ؛ فأبلغ مأربى فى دقائق معدودات ؟

سبحانكَ مبدعَ الكون ، ومودعَ الإنسان مواهبك الغالية ... ماذا فى الغيب المحجب من أسرار وكشوف يفاجئنا بها العلم ، وتطالعنا بها الحضارة ؟ أتكون مطية المستقبل القريب أشعة الشمس أم ضوء القمر أم طاقة الذرة ؟ كل شيء محتمَل الوقوع ، وكل أساطير الأولين مَظِنّة التحقيق ، وإن الأحلام المغرقة فى الخيال لتصبح من الحقائق فى واقع الحياة .

دخلنا مطار القاهرة الدولىّ . . . مبنى شامخ الذُّرَى ، أَبْهاء فِساح ، ألواح مصورة تَزِين الجدران ، سُلَّم متحرك ، مقصورات من زجاج ، أندية مُحْدَثة الطراز ، نشاط دائب يُشعرك بأنك فى سوق دولية عامرة . فتابعت خطاى ، يملأ جوانحى فخر واعتزاز .

واحتوتنا الطائرة المصرية الكريمة ، فما هى إلا أن مضت بنا تُصَعِّد ، والبرد قارس ، والغَيْم ضارب ، وتحت أنظارنا رمال الصحراء كأنما هى بساط من ذهب . وسرعان ما علت

بنا الطائرة على مَنَاط السحب فى أجواز الفضاء ، فإذا البساط الذهبي قد تحوَّل إلى غطاء من ذَوْب الفضة ، والسماء من حولنا باهرة الإشراق ، تمرح فيها أضواء الشمس . وبعد حين ظهرت الصوانى الرشيقة مرصوصة عليها ألوان الطعام ، وشُغِلنا بها وقتا نُصيب غَداءنا الشهىّ . ثم عدنا نتطلع من الطاق ، فإذا غطاء السحب الفضى من تحتنا قد تهتَّك وتشعَّث ، فتراءى لنا ذهب الرمال المُراق من جديد على أدِيم الصحراء ، ولا شىء غير الصحراء ... فيا تُرى أين النيل ، وأين النخيل ، وأين نضرة الوادى الجميل ؟ لَمْ تَطُلْ نَجْواى ، إذ استبانت رقاع خُضْر سرعان ما تلاحمتْ ، حتى استطالتْ بساطا سندسيا يشقُّه مَسِيل النهر الفَيّاض .

ولم نلبث أن شَدَدْنا أحزمتنا على خصورنا ، فالطائرة وشيكة الهبوط فى مطار « الأقصر » ، وخرجنا إليه ، فاستقبلْنا مبنى عصريا مزهوًّا بجِدَّته ورونقه ، كل ما فيه يوحى بأصالة ذوق ، وبراعة فن .

وعدنا بعد قليل إلى الطائرة ، تستأنف مُضِيَّها بنا إلى

« أسوان » ، وعادت الرمال الذهبية تملأ عيوننا سهولا وكُثبانا ، فالرمال فى هذه الرحلة طابعُها الغَلّاب ، وما أقربَها شبها — لونا وغزارة — بالحِمِّصِ فى موالد الأولياء الصالحين !

وتَبَدَّى النيل ، على حافتيه حاشيتان من خضرة زاهية ، وهو بينهما يتخايل ويتخطر ، إدلالاً بقدرته على أن يُحيلَ الأرضَ المَوَاتَ جنة فيحاء !

وأخيراً نزلنا مطار « أسوان » . . . وهو على نحو مطار « الأقصر » فى الجِدّة والرونق . وخرجنا إلى بابه ، فتقدم منا رجل رَبْعَةَ فى سمرة قانية ، على مُحَيَّاه بشاشة ، يرتدى جلباباً بلدياً سماوى اللون ، وعرض علينا سيارته . إنه سائق يملك سيارة فاخرة ، يتخذها مورد رزق ، فركبناها على بركة الله ، وانسابت بنا على طريق مُعَبَّد عريض ، تتسامق بجانبيه أعمدة المصابيح ، ثم رأينا مجموعات من العمارات حديثة البناءِ ، جميلة التنسيق ، أقيمت مساكنَ للعاملين بالسدّ . ولما تدانينا من خَزّان « أسوان » أخذت أعينُنا منشآت كهربية جديدة ، لاستغلال القوى المائية للخزان فى الإنارة وغير

الإنارة من مطالب العمران . وقد ظلت تلك القوى طَوالَ نصف قرن أو يزيد ، منذ إقامة الخزان ، تذهب هَدَراً ، لا يُنتفع بها فى شىء ، حتى عُنِىَ بها العهد الثورىّ الحاضر ، وبها تجدّد شباب هذ الشيخ الوقور ، الخزان القديم ، ونهض بأعباء اقتصادية يواكب بها أعمال التعمير فى جدّ ونشاط .

وتابعنا المسير . . .

وهَلّت أمامنا ضاحية مستحدثة ، شرعت السواعد الفنية من العمال تنشئها على طراز عصرىّ ، تلك هى « مدينة ناصر » التى أريد بها أن تتلقى المَدّ العمرانى الزاحف من المدينة . وَليكونَنّ لها فى القريب شأو بعيد .

وبلغْنا « نيوكاتاركت » — وهو « فندق الشلال الجديد » — تحفة هندسية رائعة ، اشتركت فى إعدادها وتشييدها كفايات مصرية صميمة ، فمثلتُ وقتا أمام هذا الصَّرْح الرفيع ، أجتلى فنّا وصناعة . وفتنَتْ ناظرى لوحتان بارزتان على النمط الفِرْعَوْنىّ ازدانت بهما طلعة الفندق . وطالت وقفتى أتملاهما حتى أنبَهَنى صوت رقيق ، هو صوت أمين الفندق المشرف

على استقبال الزوار ، ينبئنى بأن الحقائب قد بلغت مستقرَّها ، وأن حجرتى تتأهب للقائى .

ولم يطل مكوثى بالحجرة ، فنزلت منها إلى « نَدْوَة الـكِتاب » ، والليل مرخ سدوله ، والمصابيح الوهاجة تبدد الظلمة ، وقد عُقِدَت الندوة فى « دار الثقافة » حيث يقام مِهْرَجان « أسبوع الـكِتاب » .

دخلنا قاعة فسيحة ، بل قاعات وقاعات ، فيها تحتشد دور النشر ، يزاحم بعضها بعضا ، فى منافسة شريفة مجدية . كل دار تحتل ركنا تعرِض فيه كنوز العقول والأذهان .

إن الـكاتب اليوم ليستشعر الفخر والعزة بأن « الـكِتابَ » لم يعد زُخرفا كمالياً كوردة تزِين الصدر ، بل أصبح غذاء طيباً تُعْنَى الدولة به وتعتدّ ، ولا تفتأ تـكفُل له عوامل التنمية والإتقان .

وجُزت بأركان المعرض ، كأنى أزور قادة الفـكر وأعلام العلم والأدب ، فى صوامعهم الأنيسة ، وقد امتلأت أرجاؤها

بِعبَقٍ ذكيٍّ ينعش النفس ويمتع الرُّوح .

وانتقلنا إلى قاعة المحاضرات ، ولك أن تسميها مسرحا للتمثيل ، وَمثابة للعَرْض السينمائى ... قاعة اكتملت لها وسائل التحضر فى توفير الراحة للاستماع وللأداء على السواء .

والتقينا هنالك بنخبة من شباب « أُسوان » المثقف ، لسنا فيهم براعم متفتحة واعدة بمستقبل مشرِق ، وجلسنا إليهم ساعة أنيسة ، كانت فيها أسئلتهم متتابعة متنوعة ، تشهد بيقظة وَعْى ، ولطف ملاحظة ، وَشَغَفٍ باستكشاف أسرار المشكلات التى تَعِنُّ لخواطرهم فى قضايا الأدب والفن والاجتماع .

وكان يومنا الثانى فى طوفة جامعة للمدينة ، فزرنا « فندق الشَّلال » القديم ، وهو وصِنْوُهُ الجديد متصلان بحديقة جميلة متدرِّجة ، تبهج العين بألوان أزهارها وأشجارها ونخيلها ، وما اكتست به أرضها ، وما تناثر عليها من مقاعد وظُلّات . وإن هذه الحديقة لتنحدر إلى مَرْسَى الزوارق البخارية والشِّراعية

على ضِفّة النيل فى انتظار المتنزهين والمتنقلين من السُّيّاح .

وفى أعلى مُدَرَّج الحديقة مُسْتَشْرَف لطيف يقضى فيه الزوار أوقات النهار ، مستمتعين بلوح رائع ينبسط أمام العيون ، ذلك اللوح الذى نسقته يد الطبيعة الفنانة ، يلوح فيه النيل الساحر وقد مدَّ أجنحته يَمْنة ويَسْرة ، فإذا المجرى خُلجان ومسارب وجُزُر ، وإذا هو فيه صخور وجنادل ، والأشرعة البِيض فى جَيْئة وذهاب ، كأنها حمائم سابحة على مَتْن الماء ، وعن كَثَب جزيرة « أسوان » العتيقة تطل منها خرائب الأمس البعيد . وفى بقعة خضراء وراءها تبدو دار « البيجوم أغا خان » بيضاء ناصعة ، وخلف ذلك صحراء مترامية يرتفع على قِمّةٍ فيها ضريح الزعيم الإسماعيلى الكبير ...

هذا الموقع الفريد على رَوْعته وفتنته لا تطول جلستك حياله ، فالوقت يمرّ ، وما جئنا لننفقه استدفاء بالشمس ، أو استرخاء على الأرائك ، ولكننا قَدِمنا للتعرف والتطلع والاستخبار ، فهيّا بنا إلى قلب المدينة نجُول .

مَضَيْنا إلى رَصِيف النهر « الكورنيش » وكلما أوغلنا فيه

شاهدنا كيف الصراع بين الجديد والقديم ، هى حرب طاحنة شنتها روح التطور والتجديد ، على روح التخلف والجمود ، ففى كل مكان يحل المستحدث المبتكر محل العتيق البالى .

وإنها لحرب حامية الوطيس ، ولكنها صامتة لا تسمع فيها جعجعة ، بل ترى طِحْنا : أطلال تتداعى ، وأنقاض تتزايل ، وفى مكانها تقوم منشآت تتسامى فى عزة وجلال .

يسير معك رصيف النيل مسافات قاصية ، وعليه من باسق الشجر صفّ ممدود كأنه حَرَس يؤنسك على الطريق . وينتهى بك عند مِنْطَقَة عامرة بمنشآت عمرانية كلها من مفاخر البناء العصرى : مسجد تعلو مئذنته المربّعة ، ناد للتجديف ، حوض للسباحة ، دار للثقافة ، متاجر تنافس أحدث المتاجر فى الغرب — هـذا إلى المعاهد والمشافى ودور الضيافة . إنها حقاً مُجَمَّع بنائى شامل ، أو هى وَحْدة عمرانية نموذجية لمدينة المستقبل المرموق .

أنت تسابقين الزمن يا مدينة العصر القديم ، ولكأنك مومياء نفضت عن عينيها سبات السنين ، ونهضت من ناووسها

الحجرى تطرح عنها ألفاف الماضى السحيق ، فَسَرَتْ فيها حيويةُ الحاضر ، ودبَّت فيها روح العصر الجديد ، وما هى إلا أن اكتمل خَلقها ، متوردة الوجه ، خفاقة القلب ، فارهة الشباب .

هكذا لاقيناك يا « أسوان » الفتية المتلألئة ، ولكن من ورائك « أسوان » أخرى تستتر فى حياء وخَفَر ، هى «أسوان» القرن الماضى ، ما برحت تتخذ المئزر ، وتُسدل على وجهها اللثام ، وتحيا فى جو عَبِق بالبَخُور : بَخور الشرق الأصيل ، يثير غوامض الأخيلة وغرائب الأحلام .

أضافتنا تلك المدينة الشرقية ، وقتاً ، فَذَرَعْناها طولاً وعرضا : حارات وأزقة متداخلة ، يسلمك بعضها إلى بعض ، من حيث تدرى ولا تدرى . فأنت هنالك مَلّاح فقَدَ إبرته المغنطيسية التى يسترشد بها فى معرفةِ وِجْهته ، فراحت مركَبه تخوض الموج على غير هدى . أو كأنك عابر صحراء ضل الطريق ، فانطلق يضرب فى رمال متشابهة ، لا يبلغ بها غاية ، ولا يعرف معها من قرار . أو كأنك فى تلك المتاهة ،

المعروفة فى ألاعيب الملاهى ، تبدأ من نقطة ثم تدور وتدور ، وتحسب آخِراً أنك انتهيت إلى باب الخروج ، وإذا أنت حيث كنت ، ولكنك على الرغم من التيه والضّيْعة فى مجاهل الحارات والأزقة لا تحسّ من وحشة ولا ضيق ، بل تأنس بما يحوطك من طريف المشاهد فى سوق عامرة بألف صنف وصنف ، أو مَوْلِد حافل بالمواكب والطبول ، فتود لو طال بك السير ، وتناءت عنك آخرة المطاف .

ولاحت لنا فُرْجة طالعنا فيها رصيف النهر العظيم ، فقصدنا إليه نُكمل جولتنا معه ، وآثرنا أن نعود إلى الفندق راجلين . وما كدنا ندفع بخطانا حتى استرعى نظرى ما يثير الفضول : مركبة خيل لها حصان فَرْد ، وما زال هذا الضرب من المَرْكَبات له شأن فى « أسوان » خاصة ، وأظنه بات جزءاً لا يتجزأ من معالمها الأثرية الباقية على وجه الزمان .

ورأينا حول المَرْكَبَة جمعا من السُّيّاح ، هم أسرة واحدة : أب وأم ، وصغار عدد النمل ، يتأهبون للركوب . ولكن أنّى لهذا الصندوق الخشبى الأثرى أن يستوعب هؤلاء جميعا ؟

وما لبثت المعجزة أن تحققت أمام جمهرة من السابلة تكاثروا ليستمتعوا بذلك المشهد الأُلْعُبانىّ العجيب . وكان من الطبيعى أن يتبوأ الأبوان مكان الصدارة ، تاركين لكل من غلمانهم وبناتهم أن يختار المكان الملائم له ، وفقا للقانون الغاشم : حقّ الأقوى . وما نشبت المعركة حتى انتهت بسلام . وشاهدنا المركَبة وقد نبتت على جوانبها وفى أنحائها براعم متحركة أوشكت أن تُخْفِىَ هيكلها عن الأنظار ، ففى كل شبر منها مخلوق غائص فى مكانه ، أو متشبث به ، أو متسلق له ، حتى إن كُومَة البرسيم تحت قدَمَىْ الحوذِىّ لم تضق بغلام أو غلامين !

وراقنا المشهد الطريف ، فتعالت أصواتنا نحن الجمهور ضاحكين ، وإذا المركبة بمن فيها تشاركنا فى الضحك ، والكل يتمايل طربا ، حتى الحوذِىّ المهشم ، إلا مخلوقا واحدا ترفّع أن يقاسمنا ذلك المرح الشامل ، وأعنى به الحصان الهزيل ، وهو مشدود إلى عريشه بأحزمة من جلد ، مغلوب على أمره ، لا يملك الفكاك . لقد كان المسكين يتلفت

حواليه ، ليرمق الجمع الفَرحِ المهتاج بنظرات تنطوى على صبر وإذعان . ولبثتُ مليًّا أرمق ذلك المخلوق التاعس ، وأنا أحسّ التوجع له . إنه ماثل فى وقفة تعبر عن نبل حزين ، فهو لا تختلج فيه عضلة ، ولكن تستبين على مُحَيّاه كآبة خَرْساء .

شَدَّ ما رَقَّت نفسى لهذا الحيوان الأعجم ، ووددت لو تقدمتُ إليه أقبل غُرَّتَه ، وأناجيه بقولى :

لا تَأْسَ أيها الصديق الكريم ، فإنك فى محنتك عظيم أىّ عظيم . احتمل الثِّقْل الذى هبط عليك ، وسر به فى شهامة وإقدام . واعلم بأن الحياة أعباء وأحمال ، وكلنا من حملة الأثقال ، والبطولة تتجلى فى شجاعة الصبر وقوة الاحتمال !

وكأنما بَصُرَ الحيوان بى ، وكأنما فهم ما أناجيه به ، فقد بانت فى نظرته لمحاتُ شاكر مستجيب ، وانبسطت أساريره ، ولاحت عليه طمأنينة وهدوء ، وصاح الحوذِىّ

المهشم بصــوته المتحشرج صيحات لم يفهمها إلا حصانه ، فتحركت المركبة ، واشتدت الجلبة ، ورفع الحيوان رأسه ، وأحدَّ من نظرته ، وسار متخطِّراً على الطريق ، وكأنه حصان فِرْعَوْنَ يجرّ عجلته الحربية إلى ساحة القتال ! . . .

٢

فى ضيافة النيل

نحن اليوم ضيوف النهر الخالد ، فقد لبينا دعوته إلى شهود الآثار التى تحيط به ، وزيارة المنشآت التى تقوم عليه ، وفى مقدمتها السّدّ العظيم .

انطلقت السيارة تطوى بنا الأرض ، ووجهتها السدّ ، تلك المُنْشأة التى اتخذت مكان الصدارة بين الأعمال العمرانية الحديثة ، وبها يتسم العصر كله . فإننا نحيا فى عصر السد لا مِراء . فالرخاء الشامل لهذا الوطن الحبيب هدف له ، والنهوض بالمرافق الزراعية والصناعية على أوسع نطاق أملٌ معلق به ، ولقد ظل ذلك العمل الجبار سرابا لامعاً يساور الأعين أعواما طوالا ، وطيفاً جميلا يؤنسنا فى عالم الرُّؤَى

ألطاف ، والآن يغدو حقيقة ماثلة تتصاعد بخطاها الفساح على دَرَجِ الخلود .

الطريق إلى السد معبَّد مريح ، به بعض المَشَابِهِ من الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية ، وإنك لتلاحظ فيه بوضوح تعمير المنطقة وتعصيرها فى سرعة تبعث على الدَّهَش : أبنية متفرقة لا حصر لها تَنْبُت على الجانبين ، مصانع متلاحقة منها ما هو للحديد والصلب ومنها ما هو للكيميائيات ، مدن كاملة لا تكاد إحداها تختفى عن الأنظار حتى تطالعك مدينة أخرى ، وهى مستعمرات عظيمة للعمال والموظفين ، ولكنها مستعمرات لخير الإنسان ورفاهيته وسلامه ، لا لتسخيره واستغلاله وإذلاله .

واجتزنا بعد ذلك بقعة صخرية جبلية ، كنا نسير فيها كأنما نشقها شقا ، فبينما تتعالى تلك الحجارة حولنا ، إذ تبدو لنا المناطق التى تعدّ فيها المواد لبناء السد ، وهى حظائر حافلة بالآلات الضخام ، وبالناقلات والقاطرات والمقطورات من السيارات ، غادية رائحة ، فى جدّ ونشاط .

وواجهتنا قرية شعبية عصرية توفر السكنى المريحة للمواطن الـكادح ، وتتيح له أن يجد المقام الطيّب ، فهنالك ساحات للرياضة ، وقاعات للسينما والإذاعة ، وأندية للتثقيف ، وأخرى للترفيه ، إلى كـثير من مظاهر التحضر ومرافقه .

ولم تلبث أن التقمتنا مِنْطَقَة العمـل الأصيل ، فأحسسنا أننا قد دخلنا جَوْف المعركة ، وإنها حقا لمعركة جبارة يشنها الإنسان بما أُوتِىَ من عقل ، وبما كَسَب من علم ، لإخضاع الطبيعة وتطويعها ، لـكى يستكمل حضارته .

وأخذنا نجوب المِنْطقة ، طورا صاعدين إلى الروابى والشُّرُفات ، وتارة هابطين إلى الأغوار والأعماق ، وشعرنا ونحن نُجِيلُ النظر فيما حولنا أننا قد أصبحنا جزءاً من المعركة الدائرة ، جنوداً نقوم بقسطنا من المشاركة والإسهام : أبراج متحركة ، ورافعات عاتية ، وأنفاق وفجوات ، والعمال فيها كالنمل الدائب ، أو لـكأن المنطقة كلها خليّة نحل هائلة ، سُكّانها البشر ، وبيوتها جبال وآلات ومعدات .

مثلت وقتاً أسرِّج الطرف يَمنة ويَسرة ، وأنا فى دُوّامة

طاغية : ذلك هو الجبل الأصم الضخم ، وإن بطنه لَيُبْقَر ، وشرايينه تُمَزّق ، وأوصاله تُقطع ، وهاماته تَتهاوى . فيا للجبل الشامخ يحنى هامته أمام قدرة الإنسان ، ويخلى مكانه لعملاق جديد يتسامق ليسدىَ الخير والبركة للوادى الخصيب ... إنه عملاق السد العظيم !

ورميت ببصرى إلى النيل ، فإذا الناقلات النهرية تجوب سطحه كأنها تماسيح من حديد ، وضخام الآلات فى صَخَب تَزْحَم ضِفَّتَيه ، والأحجار تقذَف فى فمه ليلتهمها صاغرا معقود اللسان .

أيها النهر الخالد : آن لك أن تعرف حقيقة نفسك ، وحقيقة من يعايشك من البشر حولك . كنت فيما مضى إلٰها ينظر إليك عبّادك بعين الهيبة والرهبة ، ويقدمون إليك من فلذات الأكباد هِباتٍ وقرابين ، يستجدون بها رضاك ، حتى تحبوهم من مائك ما تحيا به الأرضُ المَوات . فاخلع عنك اليوم هذه الألوهية ، وأَقِمْ بين الناس فى غير تعال ولا جبروت . لا صلاة تفرضها ، ولا قُرْبانَ تطالب به .

وحسبُك ما قضيت من أعوام مِئِين بل ألوف ، غارقا فى أحلام
خرافية نسجها لك مواطنوك القدامى فى عهودهم البدائية
وحضاراتهم الأولى ، فقد تغيرت بك الحال ، وانتبه الناس
من غفلاتهم ينفضون عن عقولهم جهالة الأجيال ، ويلقون من
رءوسهم ضلالة القرون . وكشف الإنسان عن نفسه بنفسه ،
فآمن بأن الله خلقه ليكون سيد نفسه ، وصانع أقداره ،
لا ليكون عبدا لآلهة زائفة تبتز منه القرابين .

كل شىء يجرى عليه سَنَن التطور ، وأنت ملاق نصيبك
منه رضيتَ أو كرهت . لقد استبدلنا بألوهتاك أبوة كريمة ،
فلترعَ حقّ البنوة ، ولتكن أبا رزينا حكيما يدرُّ الخير
لبنيه . وما أردنا إلا أن نكون أبناء بررة أوفياء ، نحسن
الانتفاع بما تغدقه علينا من فيضك العميم .

كان البحر دائما تجاهك يفغر لك فاه ، ليبتلع من مائك
العذب فى سُعار وجشع ما يشاء أن يبتلع ، وعلى الرغم من
مر الدهور الطوال ما زالت أحشاؤه إليك عطشَى ، لا تَمَلّ
منك ولا تَرْوَى . وأنت اليوم أيها النهر الخالد قادر أن

تحبس ماءك ، فلا يتدفق إلى البحر ليذهب سدى ، مستطيع أن تعود به على تلك الصحراوات الممتدة على جانبيك ، المتطلعة أبدا إليك ، لتبعث فيها الحياة والنماء والازدهار ، بعد أن لبثت أحقابا بعيدة تأمل أن تحظى بقطرات منك ، تبلُّ بها شفاهها المشققة الجدباء .

ما أسعدك الآن بأن تستطيع أن تمنح من هو أَهل للمنح ، وأن تحرم من لا يضره الحرمان !

وما أَسعدنى ، وأَنا فى موقفى هذا ، بأن أشهد المكان الذى يولد فيه السدّ وينمو ، ليكون فتحا مبيناً لوطنى العزيز .

إنى أَزور السدّ اليوم ، وهو فى بطن النهر جنين يتخلّق ، أُرهف السمع إلى نبضات قلبه ، فكأنما أَصغى إلى هزيم رعوده تدوِّى فى جوانب الأفق . وأَشحذ شعورى نحوه ، فأحس روحه الجياشة أَمواجا تتصاول وتتصارع . وفى الغد المرتقب أَزوره ليستقبلنى على بُعْدٍ بالترحيب من هديره الدفّاق .

أتركه الآن غَرْسة لأجده عن قريبٍ دَوْحة ، تظلل الوادى الأمين ، وتؤتيه أطيبَ الثمرات .

أتركه الآن بيضة فى ضمير الغد ، لأراه من بعـد نَسْرا يحلّق بجناحيه فى سماء النيل ، ليحمىَ شاطئيه ، ويحرس سكانه وأهليه .

فسلاما أيها السد العظيم ، وإلى لقاء وَشِيك !

إنا ماضون الساعة إلى زيارة صِنْوِكَ وزميلك ، شيخِنا الوقور « خَزَّان أسوان » .

بلغناه والشمس تتوسط كبد السماء ، وترسـل بأشعتها الساطعة ، لتشيع الدفء والبهجة والإشراق .

وقفنا أمام ذلك الجبار المتمدد على عرض النهر ، صاحب الألف فم وفم ، ومنها يتدفق الموج شلالات هائجة مائجة ، برغوها الثائر ، وصوتها الهادر ، وعن اليمين وعن الشمال ، تنبسط بساتين فيحاء كأنها جنات عَدْن .

وملأنى خشوع وإكبار للشيخ الوقور : كلانا من سن

واحدة ، وإن كنت أَكْبُرُهُ بأعـوام قِلال . وكلانا واجه الحياة وأعباءها فى شجاعة وصبر ، وتقلبت به الأيام بين حلو ومر ، وكان من حظنا أن ندرك العهد الجديد الذى أشرقتْ فيه على الوادى شمس الحرية والاستقلال كاملة الضياء ، موفورة النماء . وكلانا يشعر ، وإن طال عليـه الأمد ، أن أمامه واجبات عليه أن يضطلع بها فى حاضره ، فهو يستمد من قوة العصر وعزمته حيوية النفس وشباب الروح ، ليواكب الركب الجديد فى سيره إلى أمام .

ملت على الدليل أقول : إلى أين ؟

فأجابنى : إن « أنس الوجود » ، أو بالأحرى : معبد إيزيس يناديك . فهو منا عن كَثَب . وليس فى مستطاعك أن تجلو عن البقعة قبل أن تؤدى للأثر العتيق شعائر الطـواف .

وهبطنا إلى المَرْسَى ، فاستقبلنا قارب صغير مهشم بلا شراع ، وعلى رأسه نوبيان هَرِمان يقودانه ، فنظرت إليـه كأنى أنظر إلى مَرْكَب من « مراكب الشمس » يحرسه

روحان من أرواح الفراعنــة الأقدمين . وراجعت نفسى بين إقدام وإحجام ، ثم قفزت إلى القارب وأنا أهمهم :

على بركة الله ، وفى حماه ، أتخذك يا مركب الشمس لتبلغنى معبد إيزيس !

وانساب القارب على المياه الهادئة ، وأشعة الشمس ترتعش عليها . هذه بحيرة يختزن فيها الماء خلف الخزان ، وإنها لتوحى بجلال القــدم ، فنحن نجوزها وكـأننا نقــوم برحلة فى عهود ما قبل التاريخ . هنالك صخور متراكم بعضها فوق بعض ، تــكونت فى عصور بعيدة أقصى البعد ، ولقد كانت هذه الجزر الصخرية موضع الشلال الأول ، والنهر يومئذ طليق لا يجد ما يمنعه ، فتجمح الأمواج ما طاب لهـا الجموح على الصخور فى صخب وهدير ، فأما الآن فقد استحالت البقعة بحيرة هادئة سطحها كملمس الحرير ، بعد أن كبحوا جماح النهر وقَيَّدوه بسلاسل لا يملك معها الفَــكاك ، وغدت تلك الصخور كـأنها عمالقة الزمن الغابر ، نزلت إلى النهر لتستحمّ ، فساخت أقدامها فى القاع ، وبقيت مكانها لا ترِيمُه ،

كل ما يظهر منها رءوس مُبْهَمة ضخام !

وشاهدنا قمة « أنس الوجود » يُهِلّ علينا من بعيد ، وقاربناه ودرنا حواليه ، فإذا هو شُرُفات يكاد الماء المشرئب يخفيها عن العيون ، ورأيت على ذُراها طير « أبى قِرْدان » فى بياضه الناصع ، جاثما يرنو إلينا فى محاذرة وتوجّس . ففيم التوجس والمحاذرة أيها الطائر الرشيق ؟ إن كنت من طير الفراعنة ، تبيح لنفسك أن تكون من حُرّاس دُورها ومعابدها ، فاطمئن إلينا . نحن من أبناء هذا السلف الصالح صاحب الأمجاد ، وبانى الحضارات ، جئنا نحيى مآثر آبائنا العظام . وليست روحنا الحاضرة إلا امتداداً لروحهم الغابرة ، وليس ما نقوم به اليوم من عمل جديد إلا استئنافا لما أنشأوه من عمل تليد . ما بالك أيها الطائر القابع لا تصدر عنك نَأْمة ولا حركة ؟ أتكون قد استحلْتَ طائرا من « الأباستر » يزِين المتاحف ودُور الآثار ؟

حَدّقت إلى الماء أستجلى ما يحجبه عن الأعين من خفايا تلك القصور الغريقة ، وذهب بى الخيال كلّ مذهب ، وساءلت

نفسى : هل غدت تلك القصور اليوم مأوى لأرواح الفراعنة القُدامَى ؟ هل استقرت فيها أشباح الكهنة الأولين ، يتابعون بين أنقاضها شعائرهم الدينية ، تحت ستار الماء فى الخفاء ؟

حينما يحل القَيْظ ، وينحسر الماء ، ويشيع الجَفاف ، تبدو الجزيرة بأكملها فسيحة الأرجاء ، زاخرة بالمعابد والقصور ، فيها ساحات وحجرات ، وفيها عُمُد وبَوّابات ، وفى هذه الفترة يزهو « أنس الوجود » بجزيرته ، ويصبح سيدها الأوحد ، ولكأنى أسمعه يقول : إليك عنى أيها الماء ، لقد غمرتنى أشهراً طوالا ، فدعنى أستمتع بدفء الشمس ، وأبرز لأرى الدنيا حيالى ، قبل أن يعاودنى الفيضان ، فلا أجد الضياء والهواء إلا من أعالى الأبراج !

لا عليك يا « أنس الوجود » ، لا عليك أيها الصديق المظلوم ... يوشك عهد سجنك أن ينقضى ، فلن تعيش بعد اليوم شَرِقاً بالماء تعانى الوحدة والظلام . عندى بشرى أزفها إليك ، فإنهم سيقيمون حولك سوراً عظيما يَدْرَأ عنك غائلة الماء ، كشأن سُورِ الصين القديم . ستحيا بعد اليوم

فى أمان من الفيضان ، ولن تغدو موطنا للخرافات والأساطير . ستكون جزيرتك آهلة بالحياة والأحياء ، لا أرواح خفية تسكنك ، ولا أشباح تمرح فى حناياك ، ولكن يَؤُمُّك الناس ليستمتعوا بما فيك من فن أصيل ، وما لك من مجد عريق .

رجعنا بالزورق من حيث أتينا ، حتى أوفينا على المَرْسَى .

وقلت للدليل : حان موعد أَوْبتنا إلى الفندق .

فقال لى مبتسما : لم يَحِنْ بعد .

— أَبَقِىَ ما يزار ؟

— نعم ، المِسَلَّة النائمة !

فرنوت إليه لحظات ، ثم قلت : أتريد منا أن نوقظها ؟

فتراحبت الابتسامة على شفتيه ، وقال : سنحاول أن نفعل ، ولكنها نائمة نومة أهل الكهف !

وزعق يقول لسائق السيارة : إلى المِسَلة النائمة .

وجزنا فى الطريق بمقابر أثرية من عهود عربية ، ومن عجيب أن السيد الدليل أكد لى أن هـذه المقابر تضم من رفات أولياء الله الصالحين عدداً غير قليل ، وأن على رأس القائمة « السيدة زينب » و « السيد البدوى » .

— ولـكن للسيدة زينب قبراً فى « القاهرة » ، وللسيد البدوى قبراً فى « طنطا » .

— أوهام يا سيدى ... قبراهما هنـا ... وهذا أمر لا جدال فيه !

وانبرى السائق يناصر الدليل فيما يقول ، وهو يضرب عجلة القيادة فتترنح تحت قبضته ، فألفيتنى أحسم النزاع بالموافقة ، خشية أن يقع من السائق فى هيجته ما يعجل بنا إلى إضافة أسماء جديدة ، تزدان بها القائمة المجيدة من سكان البقعة الطاهرة !

وجادت بنا السيارة فى طريق منعزل ، أفضى بنـا إلى منطقة صخرية ، ثم زايلنا السيارة متجهين إلى شبه مَحْجَر أو مَنْحِت : وهنالك رأينا عمودا مضلعا يتمدد بصلبه على أديم

الصخر ، وضلوعه الثلاث تامة النحت ، فأما الضلع الرابعة فملتحمة بالصخر الأصم . وهكذا بقى العمود فى وضعه الراهن عجبا من العجيب ، فلا هو مِسَلة كاملة ، ولا هو من صميم الجبل . لا هو وليد مكتمل النمو ، ولا هو نطفة جبلية غير متخلقة . إنه سِقْط خَـديج ، ما برحتْ أُمه محتفظة به فى أَحشائها !

أيتها المِسَلة الممدّدة ، ما أشقاكِ بمـا صنعت بك الأقدار ، فأَنت أَبدا فى توثب مشبوب ، ترقبين أن يؤذَن لك فى الخلاص .

شبيهة أَنت بمتّهم طالت محاكمته ، وليس هناك من حـكم ، وستظلين حبيسةَ سجنك ، حتى يحـكم الزمنُ فى أمرك !

نامى نومةَ الأبد .

إنك مشدودة إلى أُمك بأَمْراس لا سبيل منهـا إلى الفَـكاك .

لن تدعك هذه الأم الرءوم تفلتين ...

وكم من حب وحنان يغـدوان فى دنيا الأَثَرة والأنانية أَشدّ هولا من المحابس والأغلال .

نامى يا أُختاه بسلام !

٣

إلى معبد « أبى سِنبل »

للوصول من « أسوان » إلى « أبى سُنْبُــل » وسائل ثلاث :

الأوليان منها قائمتان فعلا ، ويمكن اتخاذ إحداهما . والثالثة ما زالت فى طور الإعداد ، أو بالحَرَى فى عالم الغيب ، ولـكنك على الرغم من ذلك قادر أن تضمهـا إلى أختيها ، فـكل ما كان فى عداد الآمال البعيدة أصبح سهل التحقيق ، ميسور الإنفاذ ، إن لم تشهده اليوم فأنت شاهده فى غدٍ قريب .

كل وسيلة من تلك الوسائل الثلاث لها مزايا وخصائص ، فالباخرة النيلية تحملك فى الذهاب والأوبة ثلاثة أيام على متن المـاء ، كأنك فى فندق عائم ، تستمتع بنزهة ترفيهية مريحة .

وفى الزورق الطائر « الهدروفيل » لا تلبث إلا خمس ساعات فى الذهاب ومثلها فى الإياب . أما الوسيلة الثالثة المنتظرة فهى الطائرة ، وإذا أنفذ مشروعها فلن تقطع فى الرحلة من الوقت إلا بعض ساعة . .

واخترنا الزورق الطائر .

واجتمعنا نحن رفقةَ الزيارة فى بهو الفندق ، قُبَيْلَ السَّحَر ، وأقلتنا الحافلة إلى المَرْفَإِ على مقربة من خزان « أسوان » ، والظلمة غاشية ، والسماء ترسل إلينا من عليائها لمحات النجوم .

. . مَثَلَنا أمام الزورق نتبينه على ضوء المصابيح ، لكأنه طائرة طافية بلا جناحين ، وهو حافلة نهرية تجرى على زَلاجات فوق الماء ، فإذا مَرَقَتْ حسبتها تسبح طائرة ، أو تطير سابحة .

ودخلنا جوفه ، واتخذنا مقاعدنا فيه . . . ما أعجب أمره ، قاعاته على تعدد طبقاتها متصل بعضها ببعض ، فى هندسة لولبية طريفة .

وتحرك الزورق الطائر ، على حين أومضتْ فى حواشى الأفق بواكير الفجر الجديد ، فكستْه صِبغة أُرجوانية هادئة .

ولم يمض طويل وقت ، حتى طالعتنا أنوار كهربية ساطعة من الشاطىء تصحبها حركة فَوّارة ... هذه مِنْطقة السَّدّ ، لا يخبو لها ضوء ، ولا تسكن لها ضجة ، فى ليل أو نهار .

وواصلنا السير سِراعا . كأننا على موعد نخشى أن نُخْلِفَه ، وطلع الفجر يزفُّ إلينا ضوء الصباح ، فاستبانت لنا الدنيا من حولنا ، وإذا نحن نرى قُرى ناصعة البياض ، قابعة على النيل ، ما أشبهها بطيور جاثمة حَطَّت رِحالها بعد طول طَواف .

وانفسح مَجْرَى النيل ، فغدا بحرا عريضا ، واشتد سطوع الضوء ، وإن لم يظهر من قرص الشمس إلا أشعة تترامى من وراء التلال فى حَذَر واحتراس .

وتكاثرت صخور الشلالات القديمة على النهر ، كأنها غُصّة فى حلقه يضيق بها أيَّما ضيق .

وبعد حين أخذ قُرْص الشمس يتسامى على التلال ، ويعلن سطوته واقتداره ، ويرينا فى وضوح تلك القرى البيض بمعالمها ، وبما تضم من قصور شعبية رحيبة ، أطبق عليها الصمت ، بعد أن هجرها أهلوها لتغمرها بحيرة السدّ ، وتصبح نَهْبَ المـاء .

تلفتُّ حوالىّ أستطلع الوجـوه ، وأستبين الرفاق : السائحون الوافدون من أوربة الشمالية هم أكثر من يضمهم الزورق ، وهم مدججون بنظارات معظِّمة ، وأجهزة مصوِّرة ، كأنهم طلائع جيش للريادة والكشف ، وما أسرع أن وصل بيننا وبينهم مرح وأنس ، وارتفعت الكلفة ، وتشابكت محاورات ونِـكات وأفاكيه .

وبينا نحن نتطارح الحديث لاهين ، أحسسنا صدمة أصابت الزورق فى عنف ، فترنح على أثرها ترنحا أشاع فينا القلق ، ثم هدأتْ حركته ، ودار دورة عريضة فى النهر ، وبرز خادم السُّفْرة ، فتصيدناه بالأسئلة ، وتضاحك الرجل وهو يردد : لقد نطحتنا سمكة كبيرة ، أو لعله تمساح اختفى على الأثر .

تمساح ينطح زورقَنا الطائر ... أمر جَلَل !

وددت لو وقعت عينى على ذلك التمساح الناطح ، أشهرِ سكان النهر الخالد ، وهـو يتخطر حرًّا طليقاً وسط الأمواج فى هيبة واقتدار . فلم تعد تُشْبِـع عينى تلك التماسيح المعروضة وراء القضبان تتقلب فى بِرَك ضَحْلة خلال حدائق الحيوان . إنها هنالك رهينة الأسر ، مَهِينَة الجانب ، لا حول لهـا ولا طول ، تتنـكر شخصيتها فلا تصلح إلا لتلهو بها نظرات المتفرجين من خلق الله .

وددت هذا ، ولـكنى وددته بعد أن اختفى أثر التمساح الجسور ، ونجا الزورق من عدوانه ، وأصبحنا منه فى أمن واطمئنان ! . . .

سرنا والتلال الصخرية على الشاطئين تسايرنا ، وجموع الأشجار والنخيل غاطسة فى المـاء ، لا تظهر منها إلا رءوس وأعناق . . . إنها تنبىء عن جزر غريقة كانت فيما سلف قرى عامرة ، وعما قريب يعلو السدّ ، فيغمرها المـاء غمرة الأبد ، وكـأن هذه الأشجار والنخيل تتطلع إلينا تطلع اليائس المشرف

على الهلاك ، وتُناشدنا أن نمدّ إليها يد الخلاص . . . كلا ، لا سبيل إلى إنقاذك بحال ، فإنما نُهدر حقك فى سبيل غاية أسمى ، وغرض أجدى ، وفى سبيل النفع العام لا مبالاة بأشجار محدودة ، ونخيلات معدودة ، فكونى فداء لمصلحة المجموع ، وارضَىْ بما قسمت لك الأقدار .

وجازت بنا بعض بواخر السياح ، تمشى الهُوَيْنَى ، كأنها تختال على بساط من حرير ، على حين يقفز زورقنا الطائر ، كأنه فى مضمار سباق . وتبادلنا التحايا ، وقلوبنا فى فرحة ، إنها فرحة الملتقى بين رفاق جمعت بينهم وَحدة الطريق .

ولاحت الأشرعة البيضاء على وجه الماء ، تؤذن بقرب الوصول .

وما لبث المِجْهار أن دَوّى يعلن بلوغنا معبد « أبى سنبل » .

وتدانينا من الجبل ، فظهر على سفحه لوح صخرى عظيم ، منقوشة فيه أربعة تماثيل ، تأخذ لُبَّكَ أولَ وَهْلة ، بضخامة

الأحجام ... تماثيل فى جِلسة ركينة ترمى بنظرها إلى النهر ، لتبادلَه نجـوى صامتة سرمدِيَّة ...

وفَصَلْنا عن الزورق ، ولامستْ أقدامنا أديم الصخر ، وسرنا على مَهَل خاشعين ، وأمامنا ذلك اللوح العجيب : أربعة من « الرماسِسَة » كأنها أربعة أطْواد آدمية ، شَقَّتْ حُجُبَ الزمن الـكثيف المتراكم ، وبدت لنا حاملة على منا كبها أحداثَ العصور الخوالى ... إنها ترحب بِمَقْدَمِنا ، وتَحْمَدُ لنا سَعْيَنا . أربعة « رماسسة » هائلة لا يـكسوها إلا تلك الُخوذات العالية تَحْمِى الرءوس رمزاً للسيادة والغَلَب .

وكنا كلما قاربناها تضاءلنا إزاءها ، وأحسسنا تفاهتنا حيال تلك الضخامة البالغة . لـكأننا حقا أبناء « جلفر » فى بلاد العمالقة ! ...

وسموتُ ببصرى إلى التماثيل ، وتذكرتُ قَوْلَة الـكاتب الفرنسى « أندريه موروا » : « إن الضخامة عنصر هام فى الفن ، وخاصةً فى هندسة البناء ، فالضخم الهائل إذا ما رَوَّضْتَه انقلب إعجازاً ، وما كانت ناطحات السحب لتبدو على شىء

من الجمال لو لم تكن عمالقة ضخمة » .

وها نحن أولاء تُجاه معبد « رمسيس الثانى » ، وكل شئ فيه من تماثيل وأروقة منقور فى صميم الجبل ... لقد تحوّل الجبل الأصم الأخرس تحت إزميل الفنان كائنا عظيما تدبُّ فيه الحياة ... يا لذلك الفنان العظيم ، إذْ أحال تلك البقعة الموحشة من صخر ورمال موطن تَهَجُّد وتعبد ، له قلب ينبض ، وأنفاس تتردد .

أنت أمام أَربعة تماثيل « لرمسيس الثانى » ذات وِضعة واحدة ، وعند قدميه أهل بيته ، تحفّ بهم آلهة من طير وحيوان . وهنا وهنالك على اللوح الحجرى المجسّم تتشابك صور وإشارات ورموز ، فتجعل منه مهرجانا فنيا منقطع النظير .

ودخلنا المعبد المنقور فى الصخر من باب بين أقدام « رمسيس » الكبير : عُمُد شاهقة ، وجدران عالية ، وتماثيل مجنّحة ، ونقوش متزاحمة ، إلى قاعات لأداء الصلوات ، وسراديب لدفن الموتى ... وخرجنا منه إلى معبد آخر عن

كَثَب ، هو معبد « هاتور » ، وعلى وجهته لوح تتعدد فيه تماثيل لـ « رمسيس الثانى » أيضاً . كلها ناهضة على أهبة السير ، أو يخيل إليك أنها تسير .

ورجعنا إلى المعبد الأول ، ننظر عوداً على بدء إلى التماثيل الأربعة ، الجالسة جلسة الأبد ، وهى ترمق العالم حولها ، وكأنّ ما يحدث لا يعنيها منه شىء . لقد حسبتْ فى مستقرها أنها بمنأى عن الأحداث . ومَنْجاة من الخطوب . ولكن الدنيا تدور ، وما يفلت من دورانها كائن على ظهر الأرض ، وقد جاءت نوبة هذه التماثيل ، على الرغم من اعتصامها بِحِضْن الجبل وتحصنها به أحقابا سحيقة . وسيأتى غدا من يقصُّها قصا ، ويقتلعها اقتلاعا ، ثم يعلو بها إلى رأس الجبل ليقرَّها فيه . وستتجلى عظمة العلم والصناعة فى نقلها على حالها ، كما تجلت عظمة الفن فى نحتها وتجسيمها . وإن العلم لا يبذل هذا الجهد فى إنقاذها لمجرد عقيدةٍ تُرْعَى ، أو تاريخ يُذْكر ، أو أثر يُسْتَبْقَى ، بل يبذله لبعض هذا ولشىء أجلّ منه وأزكَى ، هو الفن ... نعم ، إنه الفن !

ومن أجل هذا الفن تنفق الأموال الطائلة فى سخاء وطواعية ، على حين يجاهد العالم فى سبيل توفير الأقوات لمن تحصدهم المجاعات . أترى الفن خيراً من لقمة العيش وأجدى ؟ أتراه أثمنَ من أرواح البشر وأسمى ؟ أيكون أعزَّ من الحياة وأغلَى ؟

كلا ، ولكن الفن هو معنى العيش الذى به قِوام الوجود ، هو نسمة الروح التى هى سر الكون ، هو جوهر الحياة التى يخفق بها قلب الإنسان !

لا انفصام بين الفن والرغيف ، فالعيش دون فن عيش جامد يشيع فيه مَوات .

الفن للوِجدان غذاء ، للنفس شفاء ، للروح رَحِيق .

الفن جَذْوة المشاعر الكريمة والنزعات السامية ، وهو الذى يشق الآفاق إلى أشرف الغايات .

ما قيمة الإنسان الحى ، إذا لم يتهيأ له إحساس مرهف ، وخيال منسرح ، وذوق رفيع ؟

كم يساوى الإنسان إذا قامت مساومته بمعيار ما فيه من لحم وشحم ؟

تافهٌ ثمنهُ كل التفاهة ، وما هو إذن إلا رمَّة من الرمم !

كم يساوى العالم البشرى إذا أسقطت منه تلك القيم الروحية الأصيلة ؟

كم تساوى الدنيا كلها إذا خلت من خفق القلوب ووَمْض الشعور ؟

ليست الحياة لقمة عيش ، بل هى فى أول الأمر وآخره مُثُـل وقِيَم ومعايير ، وما لقمة العيش السائغة المريئة إلا وليدة تلك المثل والقيم والمعايير . ولو بقى الرغيف حافًّا لا إدام له من الفن ، لاستحال غصة فى الحلوق تسدّ منابع الحياة ، وتهبط بالبشرية إلى مستوى البهيمة العَجْماء .

مِنْ هبة الفن جنينا أطيب ثمرات الرخاء والنماء والإسعاد .

من تلك الهبة النفيسة انبثقت الحياة ، وتطور الـكون ، وتسامى الإنسان .

لا تأسَوْا على ما يضيع من قناطير الذهب والفضة فى سبيل إنقاذ نفائس الفن وذخائره ، إنما تنفقونها للإبقاء على الإنسانية نفسها فى أجل معانيها وأشرف مدلولاتها ، وفى أعز ما تمخضت عنه عبقريتها على توالى العصور .

إن وقفتى حيالك يا « أبا سنبل » أتملّى سحر فنك ، وأنهَلُ من جمالك المَهيب ، لهى فى حِسْبانى أوفر كسب لى فى الوجود .

أحس وأنا خاشع أمامك بانتفاضة قدسية ، فكأنى فى محراب تزكو فيه روحى وتتطهّر .

إنى لأجثو بين يديك كما أجثو فى مَزَار عبادة ، أقتبس من عبقريتك بَصِيصًا يضىء لى السبيل .

وَداعا « أبا سنبل » .

ولكنه وَداع إلى لقاء .

سألاقيك وقد تسنمتَ ذروةَ الجبل ، والماء غَمْر يحيط بك ، ولكنه لا يستطيع أن ينال منك ، وأن يحجبك عن

عيون رُوّادك ، الطالعين إليك من كل فَجٍّ ... أولئك الذين يمجّدون فى معبدك وفى تماثيل رَمَاسِيَتِكَ عظمة الفن ، وعبقرية الفنان . وهم فى الحق لا يحتفون برمسيس الكبير ، وإن جلت مكانته وعظمت بطولته ، لحروب أقامها ، ولا لفتوحات ظفر بها ، فقد مضى عهد التباهى بالسيطرة والإخضاع ، والتفاضل بالسيادة والسلطان ، وَأَظَلّنا عهد جديد ينشُد أن تكون الحروب فى ميدان العلم والحضارة . . . والفتوحات فى مجال الإنشاء والتعمير . . . عهدٌ يهدف إلى إسعاد البشرية ، وتوحيد سعيها تحت رايات السلام !

٤

سُلطان الزمَان

السماء صحو ، والجو رائق ، والرياح تُؤْثِر الهوادة واللين ، والنيل تتلألأ مُوَيجاته تحت أضواء الشمس المتألقة .

هذا يوم فريد جدير أن نقضيه فى ضيافة « سلطان الزمان » .

ولعلك لم تسمع بهذا اللقب بعد ، ولـكنه لقب لرجل معروف الاسم ، طائر الصيت ... « أغا خان » زعيم الإسماعيلية الأوحد ، ومرقده هنالك على ضفة النيل اليمنَى المقابلة لمدينـة « أسوان » : ضريح فخم على رأس الجبـل ، اختار موضعه بنفسه فى حياته ، ورضى به مَثْوًى لجثمانه بعد رحيله عن الدنيا .

هبطنا إلى المَرْسَى ، نأخذ على الماء طريقنا إلى الضريح ، فاستقبلنا زورق شراعى أنيق يحمل اسم « غزال » ، فامتطينا ظهره على بركة الله .

وكان رُبَّان « الغزال » غلاما أسوانيا فَتِيًّا أشرف على الثانية عشرة ، حسن الطلعة ، يدير على رأسه عمامة خفيفة ، ويحزم خَصْره بنطاق ، متخذا فى شارته ولهجته سَمْت النُّواتِيِّ الأُصَلاء .

والنهر فى هــذه البقعة مَتاهة مائيَّة ، حافلة بطرائف المشاهد : خلجان ومنعرجات ، وجزر خُضْر كأنها نَفَحات من الجنة ، وصخور سُود كأنها زبانِيَة من الجحيم .

وتراءت لنا عن اليمين ، على مَطْرَح النظر ، رابية يشرف منها ضريح متواضع ، هو ضريح الشيخ « على ابن الهوى » ، وعلى الطرف الآخر من اليسار يلوح ضريح لا يقل تواضعا عن صِنْوِه ، هو قبر « الشيخ عثمان » ، وبين هذين يتربع فى عظمة وزهو ضريح « سلطان الزمان » . . . ثلاثة من أهل

الله اتخذوا من رأس الجبل مُقاماً أبدياً ، ونِعْمَ الاختيار ، ففى مثل هذا الهدوء الشامل ، والجو الساجى ، يطيب للأرواح أن تتناجَى .

ومضى الربّان الغلام يثرثر ، فقال :

إن « أغا خان » قد اختار هذا المكان مقاماً له إبّان حياته ، لأن داء المفاصل أعياه ، ولم يكن يجد شفاءه إلا فى تلك البقعة ، وكثيراً ما كان يدفن جسده فى أغوار الرمال ساعات وساعات ، فتزول آلامه . . .

وقلت لنفسى :

لعل الرجل آثر أن يكون مثواه بعد مماته ، فى المكان الذى أتاح له الراحة فى حياته ، أو لعله خشى أن تصاحبه العِلّة فى الدار الأخرى ، فتقضّ مضجعه ، وتنغّص عليه عيش الخلود ، ومن ثَم ألزم جسدَه ذلك المكان ، حتى ينعم بنومة هانئة بين حنايا الرمال الدافئة ، ويمرح فى بحبوحة من أحلام عِذاب .

وانتهينا إلى المَرْسَى ، على الشاطئ الآخر ، وشرعنا نصعد : هذا دَرَج سامق بديع التنسيق ، على جانبيه تصطفّ الأزاهير .

واعترضتنا فى الطريق لافتة مكتوب فيها : « مقبرة نور السلام » .

وواصلنا الصعود ، والخضرة النضرة تحيط بنا وسط تلك الرقعة الجبلية القاحلة ، بما فيها من رمال محرقة ، وجنادل موحشة .

وتابعنا صعودنا ، وقد خلا الطريق من الرياحين ، وقُبَيْل أن نبلغ القمة مَثَلْنا فى مكان يَنظُرُ النيلَ . . . هو مستشرَف طبيعى سَوَّته يد الإنسان ، فتجلت أمامنا منه صفحة النيل تخترقها الجزر والخلجان والصخور وأشرعة القوارب ، ومن وراء ذلك صفوف النخيل وأبنية الفنادق : مِزاج رفيع من طبيعة فِطْرية ، ومظاهر حضرية ، لوح مُصَوَّر اختلط فيه المعقول واللامعقول ، الواقع وما فوق الواقع ، الوعى

واللاوعى ، الرمز الخفىّ والحقيقة العارية . وأنت حِيالَ هذا اللوح المبدَع مبهورُ العين بفتنته ، مملوء النفس من إعجاب .

وقارَبْنا المبنى العظيم ، وواجهتنا لافتة ثانية قرأنا فيها : « مقبرة الأغا خان الثالث » : بناء مربَّع فى جانبٍ منه قبة عالية ، وعلى سُدَّةِ الباب خلعنا أحذيتنا ، ودخلنا المَزار خاشعين ، فكل ما هنالك يشعر بالمهابة والإكبار ، بما له من قدسية ، وبما فيه من روعة فن إسلامى عريق ، يزيده تَرَف حضارى بَهِيج .

المَرْمَرُ الأصيل يتألق حواليك ، فى كل ما يقع عليه نظرك ، لكأنك داخلَ قَوْقَعَة بِلَّوْرية بيضاء تَسْبَح فيها الأضواء هادئة آمنة .

وتقف تجاه القبر المظلل بالقبة العلياء ذاتِ الوشى الدقيق ، تَعْجَب للبساطة البالغة كيف تنطوى فى حقيقتها على عظمة شامخة .

النصوع والصفاء والسكون يحمل إلى الزائر لهذا المكان

إشراقَ الروح وطمأنينة النفس ، ولا غرو فنحن فى المـكان الذى سُمِّى بحق : « نور السلام » .

يا للإنسان السرمدى فى كل مكان وزمان . . . لقـد حيره لغز الوجود ، ومصير الجسد بعد انطلاق الروح ، وما عسى أن يكون أمره بعد حياته الدنيا ، طال عليها الأمدُ أو قصر . . .

ولم تستطع الأحقاب على ترادفها أن تحل اللغز ، ولا أن تهدى الحيارَى ، وإن هـذه الحيرة إزاء المصير المجهول هى التى أذكت الرغبة فى خلود الذكر وبقاء الأثر . . . ما أشبه الأهرام وما إليها من معابد ومقابر خلال عديد من القرون ، بذلك الضريح الجديد ، ضريح الزعيم الهندى الـكبير ، فى ذلك الوادى الذى تَهِيم فيه أرواح الفراعين !

هبطنا إلى زورقنا الرشيق « الغزال » ، وتلقانا الرُّبَّـان الغلام ببسمة تَرحاب كشفت عن أسنانه المنسقة الناصعة .

إلى أين يا « غزال » ؟

— إلى جزيرة النباتات .

وانطلق الزورق على الماء ، وأضواء الشمس تترقرق لامعة كأنها صفائح من الفضة طافية على المويجات ، وَجُزْنا فى طريقنا بجزيرة « ألفنتين » — واسمها المصرى جزيرة أسوان — وهى حافلة بالآثار ، إذْ كانت فى البدء موطن الأهلين ، ثم امتد منها العمران إلى الضفة الأخرى ، حيث تقوم المدينة العتيدة ، وإنها لجزيرة شاعرية تعمرها غابات النخيل ، وفى طرفها يقام اليوم فندق عظيم ، سوف يكون له شأن فى تعمير الجزيرة ووصلها بالحياة الحَضَرِية الرفيعة ، بعد أن عاشت عصوراً متطاولة وهى قطعة من الماضى السحيق .

وانتهى بنا الزورق إلى جزيرة النباتات ، فصعدنا إليها ، ولم نكد نخطو فيها حتى هَلّت علينا جوقة موسيقية شعبية قِوامها اثنان من أهل الفن : ضارب دفّ ، وعازف ربابة . وانبعثت الأنغام تحيي الزوار ، وبدأنا جولة ممتعة فى الحديقة

الساحرة ، وأنغام الدفّ والربابة تَرِقُّ خلفنا ، إذْ تمتصها الرياحين والأفنان .

دَرْب طويل ممدود ، تتفرع منه دروب ، وعلى الجانبين حياض تربو فيها غرائب النبات .

وتدفع بخطاك وئيداً يغمرك الظل الوارف ، ويسرى فى الجـو حولك أنسام هفهافة مضمَّخة بالعطور ، مختلفة الأرِيج ، وتنظر هنا وهنالك ، وعلى سمعك يَهُب صوت الدليل وهو يعدد لك أصناف ما تنبت الأرض ، ويذكر لك أسماءها فى دقةِ عارفٍ عليم . وإنها حقاً لمجموعة ضمت الطرائف والعجائب من أزهار وأشجار تباينت مواطنها الأصيلة فى أرجاء الشرق والغرب ، منها نباتات ملساء رَهِيفة كأنها أطفال رِقاق يتناغون بأصوات لطاف ، ومنها نباتات صُلبة تعلو بهاماتها وتبسط سواعدها كأنها أحراسٌ عُتاة .

أَحْضِرْ فى ذهنك اسم نبات أىِّ نبات ، واصطنع الرغبة فى أن تراه . . . فإنك لا تلبث حين تطلبه أن تجده على

مقربة منك . . . لكأن فى إصبعك « خاتمَ سليمان » ، متى هجستْ فى نفسك حاجة ، هتف الخاتم لك : لبيك ، وإذا الحاجة نُصْبَ عينيك !

وتبلغ آخرةَ المطاف ، وكأنك فى طراز جديد من « سفينة نوح » ، سكانه من عالم النبات لا من عالم الحيوان ، ولكأن الجزيرة طيف من أطياف الجِنان ، فيها من كل ما تنبت الأرض زوجان .

وفى طرف الحديقة مُثَلَّث معشوشب ، يظلله من الهند شجر جَوْز ، ومن « كوبا » نخيل ، وعلى مدِّ البصر يترامى النيل ، وقد بسط أَذْرُعًا له ، على شواطئها جبال حُمْر هى موطن الحديد . وهنالك على الضِّفّة الأخرى تتبوأ « أسوان » عرشها كأنها إلهة من إلاهات الفراعنة يحفّها جلال .

وساءلت دليلى :

أثمةَ جديد ؟

— لم يبق إلا « كَلَبْشَة » . . .

ـ وما « كَـلَبْشَة » هذه ؟

ـ معبد عتيق شُيِّد فى العهد الإغريقى الرومانى قبل ألفين من السنين، للإله « مندوريس »، وهو ابن « إيزيس » و « أوزوريس » .

واعتدل الدليل فى وقفته ، وعقد ما بين حاجبيه ، وأكسب وجهه سماتِ الوقار العلمىّ ، وانطلق يتحدث كأنه محاضر يعتلى منصة الدرس فى أحد معاهد الآثار .

هذا المعبد أول أثر قديم ضخم يخضع لتجربة النقل من مكان إلى مكان، تمهيداً لنقل المعبد العظيم فى « أبى سنبل » ... لقد قَصُّوا « كَـلَبْشَة » فى دقة وإحكام قِطَعاً بلغت خمسة عشر ألفَ قطعة ، ونقلت القطع على مراكب إلى مكان يبعد عن مكانها الأصلى خمسين كيلو مترا . . . ولبثوا فى إجراء ذلك عامين ، برعاية « اليونسكو » وبإشراف جماعة من مهندسى الألمـان . وأما النفقات فقد تـكفلت بها « ألمانيا الغربية » هدية منها « للجمهورية العربية المتحدة » . وإن هذا العمل

يا سيدى ليعدّ من أكبر الأعمال الهندسية التى تخصص بها العلماء فى عصرنا الراهن ، وهو . . .

— حسبك أيها المحاضر الغزير المادة ، وشكراً لك على ما قدمت من معلومات . . . والآن أخبرنى : كم تستغرق الرحلة إلى « كَـَابْشَة » من الوقت ؟

فبسط ساعده بحركة مسرحية رائعة ، واستخبر ساعة يده الذهبية المتوهِّجة ، ثم قال :

سنتأخر عن موعد الغَداء حتما . . .

— إذن . . . فلنرجىء . . .

فلاحقنى مقاطعاً :

الأمر بالغ الشأن . . . لزام أن تزوره ، وإن فاتك فى سبيله طعامُ يوم بأكمله . . .

فأطرقت هُنَيْهَةً ، أقول مفكرا :

ولكن هذا مرهق . . .

ثم رفعت رأسى ، وتلفتّ حولى ، فلم أجد للدليل من شَبَح . . .

وما هى إلا أن أقبلت علينا سيارة أجرة ، وهو فيها ، وصاح بى متهلل الوجه :

أَنت محظوظ . . . عثرت لك على سيارة فاخرة . . .

وقفز منها يَفْسَح لنا أن نركب .

ومضت بنا السيارة تسابق الريح .

وتبدّى لنا معبد « كلبشة » يتربع على هضبة عالية مشرفة من بعيد على « السدّ » . . . إنه يواجهه ، وكأنه يحييه ويسامره .

وصعدنا إلى رأس الهضبة ، فتجلى لنا المعبد كامل المعالم ، ولكأنه منارة ترشد الزّوار إلى مكان « السد » ، أو لكأنه ديدبان الماضى يحرس منشآتنا العصرية الجديدة .

وطوّفنا بأرجائه وقتاً ، نقتحم ساحاته ، ونجوز بقاعاته ،

ونمرّ بين عمده ، ونتطلع إلى نقوش جدرانه ، مفتونين ببدائع الفن الفرعونيّ الباهر . . .

معبد « كلبشة » كسائر المعابد العتيقة فى ضخامته ، وروعة هندسته ، ولـكنه يمتاز عنها بشىء ، هو أنه انتقل بكل عناصره من موطن إلى موطن . . . إنه أول مهاجر من معابدنا يتخذ له مقاما جديداً بعد طول ثَواء ، لينجو من غَمْرة الماء . . . وإنها لخطوة موفقة نرجو أن تتلوها خطوات للمعابد الأثرية ، حين تلجئها الضرورة إلى هجرة وارتحال .

أيها المعبد القديم فى موطنه الحديث :

إن كنت مفخرة المـاضى عمارة وفنّـا ، فأنت مفخرة الحاضر فى قدرته على أن ينقلك دون أن يمسّك أذى ، لتنعم بمقامك فى جوار « السدّ » ، ولتـكونا رمزين لحضارتين عظيمتين : حضارة الأمس المجيد ، وحضارة اليوم الجديد !

٥

إلى مَدينة النصر

لست أعنى مدينة « بورسعيد » ، مدينة النصر فى يومنا الحاضر ، ولـكنى أعنى نظيرتها فى الأمس غير القريب .

وسواء أسميناها « مدينة النصر » ، أم قلنا « مدينة المنصورة » ، فإن حروف اسمها تحمل معنى الفوز والـكَسْب والغلبة ، معنى الانتصار .

إنى لأحس ، وأنا أتأمل هذا الاسم ، أن ضوءا ساطعاً ينبعث منه لا يخبو على الأيام . إنه ضوء التاريخ الذى أوقده الأهلون من سكان تلك البقعة الطيبة فى مواقعهم المجيدة مع المغيرين الدُّخلاء .

نحن فى زيارة لمدينة النصر . . . مدينة السؤدد والعزة والكرامة ، نقصد إليها مستجيبين لدعوة كريمة وجهها إلينا نخبة من الأصفياء الأحرار ، لنشاركهم الاحتفاء بذكرى زميل من أعلام الفكر والرأى والتجديد ، حمل لواء العلم ، متقدما به الصفوف ، وبَشَّر بمذاهب عصرية فى نظم الحكم والاجتماع ، وكسب فى النهاية نصرا مؤزّرا فى ميادين الثقافة الأصيلة المستنيرة عن جدارة واستحقاق .

سافرنا لنحتفل فى مدينة النصر بنصر آخر فى ميدان المعرفة الإنسانية ، يبارى كسب المعارك فى حَوْمَة الجهاد الوطنى .

سنشارك فى إحياء ذكرى الأستاذ « إسماعيل مظهر » المؤلف والمترجم والباحث والأديب .

واحتوتنا السيارة ، رفقة ممن كانت لهم بصاحب الذكرى صلة زمالة وآصِرةُ مودة ، وجعلت تطوى بنا رَصِيفَ النيل من شاطىء « الجزيرة » بالقاهرة ، مخلّفين وراءنا جسر

٢٣ يوليه الذى لم يعد يحمل من مظاهر التجديد والانبعاث إلا رقم التاريخ الذى ارتبطت به فى عهدنا الحاضر حركة التجديد والانبعاث .

ما أحرانا أن نلقب هذا الجسر : جسرَ ما قبل التاريخ . . . أكاد أتمثله ملقياً بهيكله المضعضع على النهر ، كأنه « ديناصور » هائل من فصيلة الحيوانات المنقرضة ، قد جفّ دمه ، وتناثر عنه اللحم والجلد ، ولم تبق منه إلا أضلع من عظام نَخِرة ، توشك أن يدركها التفتت والبِلَى .

ما لنا ولهذا « الديناصور » الهَرِم ، وأمام أعيننا يتجلى على الرصيف إشراق التطور والتحضّر . . . هـذه « شبرا الخيمة » تستقبلنا بساحاتها الرحيبة ، وبقصرها الذى عمرته « كلية الزراعة » ، وبما قام على حِفاف المزارع من أبنية شعبية ، ومن منشآت للعلاج .

ثم هلت علينا « محطة شبرا » ، وكدت أكذّب عينى . . . أهذه حقا « محطة شبرا » التى كنا نلقاها فى بواكير صبانا

عجوزا شمطاء كأنها ساحرة من ساحرات قصص الأطفال ؟ لقد أخلت مكانها لمبنى رشيق ، ما أشبهه بغادة عصرية تتألق صورتها على غلاف مجلة تقدم للقراء أحدثَ مبتكراتِ الأزياء !

وأقبلنا على « قليوب » ... وقد زحف عليها التقدم الصناعى ، فأحال جانبا منها إلى مصانع ومؤسسات وأبنية شاهقة للسكنى .

وتابعنا المسير فى الطريق السريع ، فأثارت انتباهى ظاهرتان : الأولى نشاط التشجير ، والأخرى قيام محطات انتظار لركاب السيارات العامة ، وفى هذه وتلك ما ينفى الوحشة والملل من الطرق الطويلة ، ويبعث فيها الحيوية والإيناس .

وكانت الحقول الخُضْر تحيط بنا على مَرْمَى النظر ، فننعم بمرآها البهيج ، وإذا الدليل يرفع عقيرته صائحا :

نحن مقبلون على « سنديون » ... فكونوا على حذر !

ورميت إليه ببصرى أستطلع ، فواجهنى محيّاه الجَهْم ، وهو يواصل قوله بنظرات حداد :

أنسيتم أمرها ؟ إنها « شيكاغو » مصر ، أو « دالاس » العالم العربى . . . كما يقال ! . . . لقد اختلط بأهلها نَفَر من قطاع الطرق ، فأشاعوا حولها ما أشاعوا من ذعر واضطراب .

ولم يكد يفرغ من قوله ، حتى كنا أمام محطة «سنديون» ، وهى مشيدة على طراز أمريكى مُحْدَث ، فكأنها اقتلعت بجذورها من مكانها فى جنوب « أمريكا » وغرست هنا فى مقرها الجديد ، حاملة معها روح موطنها الأول : روح العُتُوّ والجرأة والاقتحام !

لسنا ندرى حقيقة ما يشاع ، ولكن الشائعات على كل حال مادة للتسلية ، ومثار للتفكه ، ولا بأس على أهل « سنديون » مما يعابثهم به أهل الثرثرة والفضول !

وتواردت حيال أنظارنا الجسور الجُدُد ، قافزة أو هابطة ،

وهى من ثمرات الحضارة الصناعية الآلية ، تضفى على فتنة الطبيعة سحر العصر الحديث .

وبدت أقفاص البرتقال تزحم أطراف الطريق ، وبائعاته الحسان يتسابقن فى عرض تلك الثمار الذهبية التى يفوح منها أريج ذكىّ ، وترامت على الجانبين بساتين زاهرة تخلب الأنظار برونقها البهى .

واخترقنا منطقة « مشتهر » ، حيث يزهو معهدها الزراعى : أول معهد للزراعة عرفه الريف ، وكانت قطعان الأبقار والجواميس ترتع فى المراعى ، وهى تبعث إلينا بنبرات بِشر وترحيب .

وتراءت لنا « بِنْها » ، أو بالأحرى « بِنْها العسل » ، وسرعان ما انحرف بنا الطريق عنها ، فلم نجد للعسل مَذاقا ، ولا شَمِمْنا له شَذًى . . . والطريق الذى مضت فيه السيارة هو طريق « ميت غمر » المحاذى « لبحر شبين » ، وإنه لبحر شاعرى ، يذكى الخيال ، ويفسح له مجال انطلاق .

وإن ضفتيه لتزخران بالغيد الملاح اللواتى يرتدنه ، ويَخُضْنَ ماءه الضحضاح ، ليملأن منه جِرارهن ، كاشفات عن سيقان بَضَّة تلوح تحت الشُّفوف ، وإن كن ملثَّمات الوجوه ، فكأنهن أخيلة رَفَّافَة من عالم الرُّؤَى والأحلام . . .

وغص الطريق بثمر البرتقال ، ونحن مقبلون على « كفر شكر » ، وما أولاه بأن يدعى « كفر البرتقال » ! وكانت تصافح أعيننا أبراج الحمام ، عالية الهامات بقدودها الهيفاء .

ولما بدت لنا « طنامل » مال علىَّ الدليل يقول :

إن ما أصابته « طنامل » من شهرة وبعد صيت يعود إلى أمرين هامين : الأول أنها موطن « دميانة » بطلة قصة « ابن طولون » التى كتبها « جورجى زيدان » منذ عشرات السنين ، ومن العجيب أن تغدو « دميانة » — وهى بطلة حبّ ومغامرة — قدِّيسة لها فى قلوب إخواننا الأقباط كل إجلال وتقدير ، وإن لها لصورا تتداولها الناس بيعا وشراء كَمَرْيَمَ البَتُول . . . والأمر الآخر أن « طنامل » تُغْنَى

بتربية العجول عناية ظاهرة ، فهى سوق لبيع اللحوم وتصديرها إلى مناطق شتى .

وما إن أتم دليلنا قوله ، حتى برز لنا على جانبى الطريق صفان من العجول الذبيحة المعلقة فى حوانيت ريفية من حوانيت الهواء الطلق . . . إعلاناً حيّا للشهرة الضافية التى أحرزتها البلدة فى ميدان الذبح والسلخ !

وجزنا بأرض المذبحة ، وطالعنى شَبَح عجل يتواثب حول أمه ، وملء أوصاله فَرْحة ونشطة ومِراح ، فتأملته مليّا والحسرة فى جوانحى : إنه يجهل ما يخبؤه له القَدَر من مفاجآت . يلهو الساعة مطمئنا فى حِمَى أمِّه الرءوم ، فإذا آب من جولته انقضّت عليه سكين الجلاد ، فهوى متخبِّطا فى دمه ، وأمه تنظر إليه كأنه يلعب حولها ، بيد أنه يلعب فى هذه المرة لعبته الأخيرة ، يقوم بعرضها على مسرح الوجود ، وهو يؤدى له حقّ الوَدَاع . . . ليس ثمة من جديد أيتها الأم الثَّكْلَى ، كلنا مثل ابنك الذبيح ، نحيا لاهين

مستبشرين بالحياة ، والقَدَر منا بِمَرْصَد ، وكم أهوَى بسكينه الماضية على رقابنا ، ونحن فى غفلة ساهون ، فنتساقط كما تتساقط هذه المواليد الصغار فى عالم الحيوان !

وكان « بحر شبين » لا يزال يصاحبنا ، وهو تارة يَضْمُر ويهزل ، وطوراً يتضخم ويتنفّخ ، وقوارب التعدية العِراض لا تـكف عن الحركة على متن المـاء .

ورأينا على البعد « ميت غمر » بمصنعها الضخم الجديد : مصنع النسيـج ، وألفيتنى على الفور أردد دون وعى :

سائلوا الليـل عنهمو والنهـارا
كيف باتت نسـاؤهم والعذارى

كيف أضحى وليدُهم فقد الأمّ
وكيف اصطلى مع القوم نارا

بيتان من قصيدة لشاعر النيل « حافظ إبراهيم » سجل بهما حريق المدينة منذ عشرات الأعوام ، فجعلت أسائل

نفسى : أيهما أعظم وأبقى ؟ قصيدة « حافظ » أم مدينة « ميت غمر » ؟ . . . سؤال أطرحه على سَمْع الزمان ، والجواب الصائب فى ضمير الغيب ، سوف يعرفه أخلافنا من أجيال الغد البعيد !

وظهرت مَشارف « المنصورة » حافلة بالوَحَدات الصحية ودُور الحضانة ومصنع الخشب الحُبَيْبِيِّ ومعمل اللبن المُبَسْتَر ، وما إلى ذلك من المنشآت العامة . . . وثمة حديقة فَيَّاحة ذات أفنان وأزاهير غاية فى التنسيق والإبداع ، تحتضن أبنية رشيقة كأنها بيوت صغار محدودة تعلوها قباب ، فهممت أقول :

ما أسعد سكان هذه المثابة الجديدة ، إنها حقا مدينة الأحلام !

فهمس الدليل فى أذنى :

إنها ليست مدينة الأحلام ، بل مدينة الحقيقة الكبرى ... مدينة الموت . . . هذه مقابر لإحدى طوائف المسيحية .

فأجبته ، وعينى عالقة بتلك المثابة :

إن من بين الموتى لمن ينعم بمرقد وَثِير هنىء يهفو إلى مثله الأحياء !

وتلفتنا بقعة وصفها الدليل بأنها « بوابة المنصورة » ! فإذا هى ذات سَحْنة طحنتها السنون ، وإذا هى غارقة فى أوهام الماضى وأوضاعه ، قرية من قرى العصور الوسطى ما زالت سوقها الأثرية قائمة ، كأنها مُتْحَف لا يحوى إلا الأطلال والآثار .

وما كان أشد عجبى حين سمعت من الدليل أن هذه هى « سندوب » ، فلقد طالما اقترن هـذا الاسم عندى بنُخْبة من أعلام الفـكر والأدب فى ذخائر كتب العرب ، إذْ كان صديقنا القديم الأستاذ « حسن السندوبى » ينشر فيما ينشر بيان « الجاحظ » وشعر « المَرَاقِسَة » وما إلى ذلك من نفائس الأدب ، فعَظُم فى خيالى اسم الموطن الذى نسب إليه أديبنا المحقق . وصَدَقَ المثل : سماعك بالمُعَيْدِىِّ — أو بموطن السّندوبى — خير من أن تراه !

وجاوزنا البلدة مسرعين ، فاحتوانا « الشارع العباسى »

مدخل « المنصورة » الأصيل ، وإنه لحىّ شعبى صميم ، فيه مَشَابِه من مِنْطَقة « الحسين » و « السكة الجديدة » بالقاهرة ... وواصلنا السير ، وظلمة الليل تنسدل رويدا ، فانبرت لها سهام النور تبدد غواشيها الثِّقال .

وبلغنا الفندق ، فأمضينا فيه قليلا نستجمّ ، وخرجنا إلى « جمعية الشُّبّان المسلمين » : بيتِ القصيد فى هذه الزيارة ... دار عامرة ، وحَشْد من العلماء والأدباء ، جمعت بينهم فضيلة الوفاء لمن أسدى إلى العلم والأدب يدا بيضاء . وشدّ ما كان الدين منارا للفضائل ومكارم الأخلاق ، وشدّ ما كان داعيا إلى العلم والتفكير فى ملكوت الله .

وفى بُكْرَةِ الصباح طَوّفْنا بالمدينة ، نستطلع ونتعرف : رصيف ممدود على النيل ، حافل بالمَنازِه والأندية ، يوازيه على الشاطىء الآخر نظير له فى بلدة « طلخا » ، وكلاهما يتنافسان فى مجال التحضّر ، وهما يتواصلان بجسرين عظيمين ، وما أشبه البلدين بتوأمين يربطهما هذان الجسران ، كأنهما شِرْيانان يتبادلان بهما حركة الحياة ، ولا يملكان الفَكاك .

المنشآت العمرانية فى « المنصورة » تنمو سِراعاً فى قوة وجبروت . « الجامعة » تَتَخَلَّق ، والسوق العظيمة على وَشْكِ أن أن تستقبل المتاجر والروَّاد ، وقصر « الثقافة » يتعالى صَرْحُه على الشاطىء ، إلى غير ذلك مما يُشْعِرُ بالاستجابة لرُوح التطور فى المجتمع البَنَّـاء .

وكنا ، ونحن نجوب المدينة ، نحسّ الذكريات المجيدة ترافقنا فى كل خطوة نخطوها . أنتَ مع « الصالح أيوب » و « الملك الـكامل » و « شجرة الدرّ » و « ابن لُقمان » وغيرهم من شخصيات التاريخ الوَضِىء لهذا البلد الطيب ، فالشوارع والمؤسسات والمعاهد والمساجد والأسواق تنطق بأسماء هؤلاء الأبطال الغابرين الأحياء !

وحين حَسِبْت أنا بلغنا غايةَ الشوط ، قلت للدليل :

آن لنا أن نرجع .

فالتمعت نظراته قائلا :

بقى الأهمّ من كل ما شهدت . . . ألا تُلِمُّ بدار « ابن لُقمان » ؟

فقلت : بنا إليها ...

ووصلنا .. وأول ما استقبلنا « مسجد موافى » وهو مبنى له خطره فى عالم الآثار ، إلا أنه يدين بشهرته الكبرى لدار « ابن لقمان » ، فهو يلاصقها ، وكأنه بابها ، أو كأنه لسانها الناطق ، وصوتها الجَهِير ، يعلن فى مواقيت الصلوات الخَمْس من كل يوم نداء التاريخ الخالد :

الله أكبر ... هنا قضى الملك « لويس التاسع » فترة أَسْرِه ، بعد أن دَحَر المصريون جيشَه ، وهو يحاول الغزو والعدوان ، فى منتصف القرن السابع الهجرى .. الله أكبر !

واتجهنا إلى الدار النبيلة العظيمة ... يا لله ! ... كم من مظهر ضئيل تكاد تقتحمه العيون ، له من أصالة المخبر ، ونفاسة الجوهر ، ما يمنحه سر الخلود ... تلك دار متواضعة بالغة التواضع ، فى صدرها بوابة متطامنة عليها طابع الدّعة والسذاجة ، وعلى جبهتها لوح رُخامىّ خُطّ فيه تعريف وجيز بالدار .

ودخلناها ... تَشِيع فى نفوسنا منها فرحة النصر ، ونحسّ لخطانا على أرضها خفق الطبول ... وكأننا نتابع زحف الجحافل من أبطال المدينة فى عصر المعركة ... إننا نسير فى ركاب الموكب التاريخى ، نهتف للسلف المجيد هُتاف الإعزاز والاعتداد بما نال من ظفر . وإذا كنا قد حرمنا أن يكون لنا فضل المشاركة فى ذلك الجهاد الوطنى ، فلا يفوتنا اليوم أن نستحضر فى أذهاننا ركب التاريخ ، مشيدين بذكراه ، سائرين على هداه ، ونحن نواصل الكفاح من أجل وطننا الفتىّ ، لنكسب له النصر تِلْوَ النصر فى عهدنا الجديد ...

وهبطنا الدَّرَج ، فإذا نحن فى ممر صغير ، تحلِّى جدرانه نُبَذ تنقل إليك لمحات من صفحات التاريخ فى وصف الحملة الغاشمة على المدينة ، وصور تذكارية لافتتاح الرئيس « جمال عبد الناصر » للدار ، ولا غَرْو أن نرى قائد الانتصار على العدوان الجديد فى مدينة « بورسعيد » يحيى ذكريات الانتصار على العدوان القديم فى مدينة « المنصورة » .

وانتقلنا إلى صحن الدار، فأسلمَنا إلى غرفة عُلوية تزينها شُرْفة، تقبع تحتها حجرة أشبه بحاصِلٍ للدواب . فى الغرفة العليا حُبِسَ « لويس التاسع »، وفى الحجرة السفلى حبست حاشيته وأحراسُه .

وخرجنا إلى قاعة فسيحة يَسْبَح فيها ضوء النهار، هى معرض حافل بذخائر فنية عصرية أو قديمة، متصلة أوثق الاتصال بالغزو والانتصار . . . وهذا المَعْرِض يتحدث إليك بلغة الرسوم المجسَّمة، والتماثيل والألواح والمخلّفات، حديثاً شافياً يغنيك عن دروس مطولة وجولات بعيدة فيما كتب الباحثون والمؤرخون .

وهنالك تطالعك رسائل تبودلت بين الغزاة الدخلاء وحماة الوطن الأبطال، فكأنك تَفُضُّها بنفسك، وتكشف فيها عما امتلأت به رءوس المعتدين من صَلَف وعنجهية وكبرياء، وما عمرت به قلوب الحماة المدافعين من عزة وكرامة وإباء .

وتنقل بصرك بين الرسوم والتماثيل والألواح والمخلفات،

فيقرع سمعك صوت النَّفِير ، وصليل السيوف ، وسنابك الخيل ، وهَرِير الأنفاس ، وتتمثل نفسك على مرقبة من المعارك الطاحنة ، تشهدها بين جَزْر ومدّ ، واقتحام وانهزام ، ولا تلبث أن تخوض غمارها ، شاهرا سيفك ، مُرْخِصًا فى سبيل الوطن حياتك ، ثم تجدك بين حشود الأبطال المنتصرين يسوقون الملك المعتدى أسيراً فى مَوْكِبِ المهانة والإذلال ، ينتهى به المطاف إلى المحبس ليقضى فيه ما كُتِبَ له من أيام . وترى من بعد ذلك جمعا من الرسل أقبلوا على قاضى القضاة ، يستنقذون مليكهم بما فُرِضَ عليهم من فِدْية ، وهم يجرِّرون أذيال الخزى والعار .

وتأهبنا لمغادرة دار النصر ، فى مدينة النصر . . . وقد أحاطت بنا أطياف نُورانية ، من آفاق التاريخ البعيد ، كأنها تحرس المدينة الخالدة ، وتبارك وثبتها مع الوطن كله فى الحاضر المشرق المشهود ، وتحيى تطلعها إلى الغد الباهر المنشود .

٦

«أبو الهول» يتكلّم

(رسالة يبعث بها « أبو الهول »
إلى مدينة القاهرة يبثها فيها بعض
ما يتناجى فى صدره) .

صديقتى « القاهرة » :

هذه رسالة أناجيك بها ، وإنها لأول رسالة أفضى بها إلى كائن كان ، منذ عهد عهيد . . .

رسالة أكتبها إليك بلغتى الأصيلة ، لغة الرسوم والنقوش ، فعلى الرغم مما وعاه صدرى من مختلف اللغات بعيدها وقريبها . ومن شتى اللهجات مأنوسها ومَجْفُوِّها ، ما زالت « الهيروغليفية » أثيرةً عندى ، لا تَفْضُلُها لغة سواها .

ومَرَدُّ هـذا الإيثار « للهيروغليفية » أنها اللغة التى نزلت من لسانى منزلة الفطرة والسليقة ، فأصبحتُ موصولا بها ، وأصبحت هى موصولةً بى ، فنحن صِنْوان لا يفترقان .

وأكبر ما أخشاه أن أصطنع لغة مستحدثة ، وأن أدير على لسانى لهجة غير لهجتى ، فأفقد سلامة المنطق ، ولا تستقيم لى قدرة على التعبير الصحيح .

على أن اللغة « الهيروغليفية » تتميز بما فى رسومها من جمال ، وما فى نقوشها من طُلاوة ، وذلك كله خليق أن يغرينى بالاحتفاظ بها على تطاول العهد ، وتقادم الزمن ـ

ما أروعها من لغة !

إنك إذ تقلبين النظر فى حروفها ، وتتصفحين ما حوت من رسوم ونقوش ، فكأنك تجوسين خلال مُتْحَفٍ زخرت أبهاؤه وقاعاته بما سجلناه على جبين الأيام من فنٍّ جميل ...

ولعلى حين أناجيك بهذه الرسالة أميط اللثام عن حقيقة

ما أشاعوه عنى ، إذ رمونى بالصمت المطبق ، بل جعلونى رمزا للعِىِّ ، ومثلا للبَكَم ، فكأنى عندهم لا أزيد على صخرة خرساء .

حقا لقد زممت شَفَتَىَّ منذ دالت دولة هذه اللغة « الهيروغليفية » التالدة ، فلم أنطق بحرف . ويشهد الزمن أنى ما رَضِيت بحظى هذا من السكوت ، فأنا أضْيَقُ ما أكون صدراً بحبسة اللسان ، وشد ما تشوّقت إلى جليس يتحدث إلىّ بلغتى ، فأجاذبه أطراف الكلام ، وأروى ظمأ فضوله فيما يريد أن يسألنى عنه من مكنون الأحداث .

فهل وفد علىّ سائل يتحدث إلىّ بلغتى ، فرددته كسير الخاطر كاسف البال !

فيمَ إذن هذه الفرية التى يُزَوِّرونها على ، فِرْيَةَ العِىِّ والانغلاق ؟

كثيراً ما هممت بأن أحل عقدة ذلك اللسان الحبيس الذى خنقت بصمته ، وكثيراً ما لمع فى خاطرى أن أطلق الصوت

عاليا مدويا فى تلك الرحاب الفساح من حولى ، لأخفف عنى ما أعانيه من وحشة وحَرَج ، ولـكن أين من يتبين من صيحاتى ما أريد الإفصاح عنه ؟ أين من يصغى إلىّ ، ويفهم عنى ؟

لـكأنى بمن يسمعونى وقد وَلَّوْا فرارا منى ، أو هزُّوا رءوسهم سخرية بى ، يظنون أن رأسى قد خَرِب ، فراحت تَصْفِر فيه الرياح !

وهأنذا أخيراً أشعر بأنى فى حاجة إلى أن أناجيكِ . . . أناجيك أنت أيتها الصديقة التى جاورتِنى منذ أربعة عشر قرنا ، فأهديتِ إلىّ أنساً وطمأنينة ، بعد أن قضيت سوالف القرون وأنا فى تفرد وعزلة ، تقف من ورائى هذه الأهرام الثلاثة ، أو بالأحرى هؤلاء الأحراس الأيقاظ ، مشرئبين متشامخين كأنهم زبانية يعدُّون علىّ الأنفاس !

ثمة عاطفة توثقت وتأصلت ، ولم أعد أطيق لها كتما ..

عاطفة تهزنى إليك ، وتصلنى بكِ ، وأنا فى مكانى لا أستطيع منه البَرَاح . . .

لقد آن لى أن أتنفس ، وأن أجلو لك دخيلة نفسى ...

إن « أبا الهول » اليوم ليتكلم . . . ولكنه لا ينطلق له صوت .

إنه يبوح لك بمكنون سره سطوراً وكلمات .

هذه رسالته إليك أنت وحدك . . .

ربما خدعك مظهرى ، فخيل إليك أنى كما أنا صخر مُصْمَت ، جماد يَحْيَا فى كهوف الرمال ، طَوَى الأحقاب فى معتزَله كما يطوى الناسك عيشه ، صائمَ الدهر ، حليفَ الصمت ، يسبح فى غيبوبة ليس لها مُنْتَهَى . . .

هل خَطَر ببالك أن لهذا الجماد قلباً ؟

قلباً كسائر القلوب الحية . . .

قَلْبًا يسعد ويشقى . . .

قلباً يتعاوره الأمل واليأس . . .

قلباً تتداوله ألوان المشاعر والأحاسيس . . .

آن لهذا القلب أن يعبِّر عما يجيش فيه !

آن له أن يذيع هوى لكِ طالما كتمه فى الأعماق . . .

لا يسرعنَّ بكِ الاستخفاف إلى الابتسام . . .

أشفقى على محبٍّ عفيفِ الهوى ، صان لك حبه طوالا من العصور والآماد . . .

لست أغفل عما بيننا من فروق ...

أين أنا منك ؟

أين ذلك الناسك المتقشف تكسوه سافيات الرياح ، من عروس وَضّاحة الجبين ، تحفّ بها مجالى الحياة والبِشْر والنور ؟

أين أنا منك ؟

أين ذلك الجماد المكسور الأنف ، القابع فى ألفافه الركود والجمود ، من تلك الزهرة النامية ، المتطلعة بأنفها الأشمِّ إلى موصول التجدد والازدهار ؟

يا لله !

ما أشدَّ شَغَفِى بك !

قسما إن حياتى كانت قبل أن أراكِ هباء ، فإذا أنت تَبْزُغِين قُبالتى ، فتملئين علىَّ دنياى من بهجة وإيناس ...

أَنْسَى ولا أَنْسَى يوم حلّ ذلك العربى النبيل بهذا الوادى ، وما هو إلا أن خرج بك من فُسطاطه ملفوفة فى شَمْلته البدوية ، فسوّى لك على شاطىء النيل مهدَك الأول ، مَهْداً من سُنْدُسٍ خُضْر ، تظلله بواسق النخيل ، وتهدهده عرائس النسيم ، وتشدو له راقصات الطير بأعذب الأهازيج ...

يابنةَ الفُسْطاط :

فى ذلك اليوم الميمون ، يوم مولدك الكريم ، فتحت عيْنى الظامئة الكابية فالتقت بعينك الريّانة اللامعة ، فأحسست أول ما أحسست أن بين جنبي قلباً ، وأن هذا القلب نابض خفاق ...

لم أكن أعرف لقلبي هذا من وجود ، قبل أن تكتحل بمرآكِ عين الوجود ...

لكأنكِ تقولين :

ألم تكن « منفيسُ » عن كَثَب منك ، فى جنوب الوادى ؟

أو لم تكن كذلك « عَيْنُ شمس » بمقربة منك فى الشمال ؟

كانتا هنالك حقا يابنةَ الفُسْطاط . . . وعاشتا دانيتين منى لا ريب ... ولكنى لم أشهد لهما ظلا ، ولم أحسَّ لهما حياة . .

أما أنتِ فقد رأيتكِ أمامى تتخلقين وتترعرعين ، فكنت كأنما أنا الذى أتعهد تنشئتك ، وأرعى تنميتك ...

أنت ابنتى طفلة ...

وأنت رَبيبتِى صبيَّة ...

وأنت صَفِيَّتِى فَتِيَّةً مكتملة النُّضْج والتفتح ...

يتمثل فى ظنى أنك تهمسين قائلة لى :

إنى غريبة عنك ، حملنى « ابن العاص » معه غَرْسَةَ من البادية ، فأنبتها على ضِفَةِ النهر المبارك الغُدُوات والرَّوْحات .

لله ما أجملك من غريبة مأنوسة !

كان لزاما على ذلك الوادى أن يستقبل غَرْسا غريباً عنه . . نباتا جديداً فَتِيَّ الروح !

لقد ران الخمول على تُرْبَة هذا الوادى ، دهوراً متلاحقة ، فقضى حياةً راتبة خاملة ، فما إن برزتِ فى أفق حياته كالكوكب المتألق ، حتى شعرنا بهذا الوادى ينتعش ويتجدد .

منذ هبطتِ هـذه الرقعة من أرضه ، سرتْ فيه سارية من النور ، تهديه طريق التحضّر ، وتزفّ إليه طريفا من العظمة والمجد .

لله ما أعجبك من غريبة أَلُوف !

لم يكد يستقر بك المقام على هذه الأرض ، ترتوين من رحيق نبعه ، وتتنفسين فى رحيب أجوائه ، وتغتذين من تليد زاده ، حتى زالت عنك الغربة ، وما أسرع أن اندمج الوادى فيك ، واندمجت فيه .

لقد تم بينـكما تآلف وتزاوج ، فتجلت على الوادى تلك الشخصية المتميزة ، متوثبة أبداً إلى مشارق الأمجاد .

فيابنةَ الفُسْطاط :

كيف لا أهيم بك حبا ؟

أنتِ دوما مطمح البصر ، إليك أرنو ولا أملّ ...

قاسمتك ما مرَّ بك من أحداث ، ويا لها من أحداث !

لقد تعاقبت عليك الأيامُ بالسعود والنُّحوس ، وتداولَتْكِ الأقدارُ بين إقبال وإدبار ، ولكنك ظَلِلْت عندى كما أنت أَثِيرَةً حبيبة ، لا يلحق صفاءَ حبى لك شَوْب !

لبثْتِ رَدَحًا من الزمن صبية عربية فى فُسطاطك البدوى ، تحاولين جهد المستطاع أن تحتفظى بذلك المظهر الساذَج ، فإذا بك قد وفد عليك « جوهر الصِّقِلىّ » يهدى إليك كنوز المَغْرِب ، ويتودد إليك بألوان من التَّرَفِ كانت قصارَى ما بلغه الفاطميون من ثروة وغنى ، فأصبحتِ بحق « قاهرةَ » القلوب ، وما أنت إلا قاهرتى .. قاهرةُ « أبى الهول » !

ما أفتنك وما أبهاك من قاهرة !

فى هذا العهد الفاطمى الألاق ، زانك ذلك الزِّىّ المترف ، حافلا بالنفيس من الُحلِىِّ ، والفاخر من الُحلَل ،

فازدانت بك محافل الأعياد والمواسم ، درة باهرة السَّنا ، تَهْوِي إليها أفئدة الناس من كل فَجٍّ وصَوْب ...

على أنك بعقلك الكبير سموت فوق لَهْوِ الغوانى ، ودَلالِ الحسان ، فكنت راعية للعلم ، أمينةً على الدين . فى أفقك الصحو تعالت مئذنةُ « الأزهر » العتيد تعلن كلمةَ الله ، وفى رحابك الخِصبة انتثرت معاهد الدرس والبحث ، وعلى أبوابك العامرة احتشدت الوفود تلتمس عندك الخير ، وتطلب الزُّلْفَى .

ثم توارد الأيام ...

وإذا أنت فى صحبة ذلك « الأيوبىّ » الأبىِّ ... تلبسين دروع الحرب ، وتعبِّئين كتائب الشجعان ، ثم تخوضين الغمرات ، يخفق فوق رأسك لواء النصر والغَلَب ...

ودارت بك دورة الأيام ...

وإذا أنت بعد النُّعْمَى فى بؤس ، وبعد العزة فى هَوان ...

يا لتلك الأيام الصعاب !

كنت أحس أنا الصخرة العاتية التى ثبتت على الدهر ، كأنى أذوب وأتحلل من فرط التحسُّر والأسى ...

ومن أين لى صبر ، وأنا أراك تحت سطوة ذلك « المملوك » الجبار ، ينظر إليك نظرة النَّمِر المفترس ، ويلهب جسدك العزيز بالسياط ؟

ولكنك كنت كريمة فى عهد هوانك وانكسارك ، كما كنت كريمة فى أيام إقبالك واعتزازك ...

وراء الغلائل من دمعك الهَتُون ، كانت تتراءى بسمتك الأصيلة النبيلة ، يتجلى فيها الأمل الحلو ، والإيمان المكين .
ودالت دولة هذا الطاغية العَسُوف ...

وتواردت عليك الأيام والليالى ، وأنت فى خضم مَوَّاج ، بين مد وجزر ...

لا تكادين ترفعين الهام ، تطالبين بحقك فى الحرية والعزة ، حتى تريدك الأحداث على ما تكرهين ، وأنت أبدا على ترقّب وتحفز ...

وما زلتِ على عهدك فى الكفاح والمجاهدة، حتى انجابت عنك غواشى العبودية والإذلال، وخرجتِ من بُوتَقَة المِحَن والأرزاء، خالصة المَخْبَر، صافية الجوهر، فكنت الظافرة القاهرة.

وحِقْبَةً كنت تتألقين فى لَبُوسِ «شهر زاد»، متمددة على الحشايا الوثيرة، هائمة بخيالك فى آفاق الحب، تنبعث منك آهات الشوق والحنين، وعلى صفحة وجهك يَرِفُّ لثامك الحريرى المفهاف.

وإذا أنت تغشاك غفوة، فتسلمك إلى أحلام هينة لطاف ...

وبغتة أنبهتك الطبول تُقْرَع، والأبواق تَصْفِر، والصيحات تتعالَى ... فانبعثتِ من مرقدك فى حماسة واهتياج.

إن الدنيا اليوم غيرها بالأمس ...

إن الخمول والسكون والتراخى قد غدا يقظة عارمة ...

المعاول تضجّ فى الأيدى القوية التى تزيح الأنقاض البالية، لتشيِّد الصرح الجديد.

الدولة الفتية تنهض لتخط مكانها فى الطليعة ...

وشاعت بين جوانحك فرحة البُشْرَى ، وامتلأ قلبك بيقين جديد ...

وما أسرع أن مزقتِ عن وجهك لثامَ « شهر زاد » ، فأسفرت ملامحك الأصيلة ، ملامحُ « مصر » المتوثبة العاملة ...

وفى لحظة ، كنت فى صَدْر الركب ، ترفعين بيمينك راية النصر ، وتمضين فى عزم وإيمان ، يحف بك قادةُ الثورة الأحرار ...

وزُلزلت قواعدُ الغاصب المستعمِر ، وحفت به النُّذُر ، فلم يملك إلا أن يجمع رِحاله ، وأن يطلب له أفقاً غير الأفق ، وجدارا غيرَ الجدار ...

وتمت لك يا قاهرتى فرحةُ النصر ، بجلاء ذلك الغاصب المستعمر ، وأنفه راغم ، فكان يوم جلائه عيدَ الأعياد ، ورمز الأمجاد .

يا قاهرتى العزيزة :

أنت اليوم كعبة ذلك الشرق العربىّ المنبعث لاستعادة حقه فى مكانة الصدر بين الأمم ...

أنت اليوم قلبُ الشرق العربىِّ النابض ، لسانه المفصح ، عقله اليقظ ، ضميره الحىّ ، جبهته الأبيّة ... أمله المنشود !

أنتِ على الرغم من كل شىء قاهرة ...

وستظلين ما بقى الدهر ، وأنتِ « القاهرة » !

صديقك

« أبو الهول »

فهرس

مؤلفات «محمود تيمور»

وتواريخ إصدارها فى طبعاتها المختلفة

ا — بالعربية :

١ — مجموعات قصصية

١ — كل عام وأنتم بخير : ١٩٥٠ — ١٩٥١ — ١٩٥٦
٢ — مكتوب على الجبين : ١٩٤١ — ١٩٤٧ — ١٩٥٦
٣ — شفاه غليظة : ١٩٤٦ — ١٩٥٣ — ١٩٥٩
٤ — شباب وغانيات : ١٩٥١ — ١٩٥٨م
٥ — إحسان لله : ١٩٤٩ — ١٩٥٩
٦ — فرعون الصغير : ١٩٣٩ — ١٩٤٥ — ١٩٦٣
٧ — أبو الشوارب : ١٩٥٣
٨ — أبو على الفنان : ١٩٣٤ — ١٩٥٥
٩ — زامر الحى : ١٩٣٦ — ١٩٥٥
١٠ — قلب غانية : ١٩٣٧ — ١٩٥٥ — ١٩٦٢
١١ — ثائرون : ١٩٥٥
١٢ — دنيا جديدة : ١٩٥٧
١٣ — نبوت الخفير : ١٩٥٨

١٤ — تمر حنا عجب : ١٩٥٩
١٥ — أنا القاتل : ١٩٦١
١٦ — انتصار الحياة : ١٩٦٣

٢ — قصص مطولة

١ — كليو باترة فى خان الخليلى : ١٩٤٦ — ١٩٥٣ — ١٩٦١
٢ — سلوى فى مهب الريح : ١٩٤٤ - ١٩٤٩
٣ — نداء المجهول : ١٩٣٩ — ١٩٤٢ — ١٩٤٤ — ١٩٤٧ — ١٩٤٨
٤ — شمروخ : ١٩٥٨
٥ — إلى اللقاء أيها الحب : ١٩٥٩
٦ — المصابيح الزرق : ١٩٦٠
٧ — معبود من طين : تحت الطبع

٣ — صور وخواطر

١ — ملامح وغضون : ١٩٥٠
٢ — النبي الإنسان : ١٩٥٦
٣ — شفاء الروح : ١٩٥١ — ١٩٥٧
٤ — عطر ودخان : ١٩٤٤ — ١٩٥٠ — ١٩٥٦

٤ — رحلات

١ — أبو الهول يطير : ١٩٤٥ — ١٩٤٦ — ١٩٤٩ — ١٩٤٤
٢ — شمس وليل : ١٩٥٧ — ١٩٥٨م
٣ — جزيرة الجيب : ١٩٦٣

٥ — مسرحيات

١ — صقر قريش	: ١٩٥٦
٢ — سهاد	: ١٩٤٢—١٩٥٦
٣ — المنقذة وحفلة شاى	: ١٩٤٣
٤ — المخبأ رقم ١٣	: ١٩٤٢—١٩٤٩
٥ — المزيفون	: ١٩٥٣
٦ — فداء	: ١٩٥١
٧ — عوالى	: ١٩٤٢
٨ — أبو شوشة والموكب	: ١٩٤٣—١٩٤٥
٩ — قنابل	: ١٩٤٣—١٩٦٠
١٠ — حواء الخالدة	: ١٩٤٥—١٩٦٠
١١ — اليوم خمر	: ١٩٤٥—١٩٥٦
١٢ — ابن جلا	: ١٩٥١—١٩٦٣
١٣ — أشطر من إبليس	: ١٩٥٦
١٤ — كذب فى كذب	: ١٩٥٣
١٥ — خسبة وخيسة	: ١٩٦٣
١٦ — طارق بن زياد	: تحت الطبع

٦ ــ دراسات لغوية وأدبية

١ ــ مشكلات اللغة العربية : ١٩٥٦
٢ ــ دراسات فى القصة والمسرح « فن القصص » : ١٩٤٥ ــ ١٩٤٨ ــ ١٩٥٦
٣ ــ الأدب الهادف : ١٩٥٩
٤ ــ معجم الحضارة : ١٩٦١
٥ ــ مناجيات للكتب والكتاب : ١٩٦٢
٦ ــ ظلال مضيئة : ١٩٦٣
٧ ــ طلائع المسرح العربى « أنا والمسرح » : ١٩٦٣
٨ ــ أفانين « مومات الفكر العربى » : تحت الطبع
٩ ــ الأدب العربى فى مائة السنة الأخيرة :

ب ــ بالانجليزية :

قصص من صميم الحياة المصرية

حـ ــ بالفرنسية :

١ ــ عزرائيل القرية ٢ ــ شفاه غليظة
٣ ــ بنت الشيطان ٤ ــ كل عام وأنتم بخير
٥ ــ نداء المجهول ٦ ــ زهرة المرقص
٧ ــ غراميات سامى ٨ ــ حلم سمارا
٩ ــ حياة الأشباح

ى — مجموعات أخرى باللغات الآتية :

الألمانية — المجرية — الايطالية — العبرية — الروسية — الأزبكستانية — القوقازية — الجيروزينية — اليوغوسلافية — البنجالية — الصينية — الإسبانية — الإندونوسية — الكردية — الأرمنية

كتب عن (محمود تيمور)

١ — رائد القصة العربية للأستاذ نزيه الحكيم

٢ — قصة محمود تيمور للأستاذ أنور الجندى

٣ — الأديب الإنسان للأستاذ صلاح الدين أبو سالم

٤ — محمود تيمور وفن الأقصوصة } : للأستاذ فتحى حسين الإبيارى
٥ — فن القصة عند محمود تيمور }

٦ — أدب محمود تيمور للحقيقة والتاريخ الأستاذ محمود بن الشريف

